

جوليان غرين
باريس

كلاسيكات بنجوين الحديثة

باريس

وُلد جوليان غرين لأبوين أمريكيين في باريس عام 1900، وعاش معظم فترة عمله الأدبي الاستثنائي هناك، يكتب باللغة الفرنسية لقرائه المنتشرين على اتساع أوربا. لقد نشر ما يربو على الخمسة والستين كتاباً في فرنسا، بما في ذلك الروايات، والمقالات، والمسرحيات، وأعداد كثيرة من صحيفته.

نشر بالإضافة إلى ذلك خمسة كتب مشهورة في الولايات المتحدة. أثناء الحرب العالمية الأولى، أدى غرين الخدمة في هيئة الصليب الأحمر الأمريكية، ثم في الجيش الفرنسي، أثناء الحرب العالمية الثانية، وعمل في مكتب الولايات المتحدة لإعلام الحرب، مراسلاً إذاعياً لصالح فرنسا.

باعتباره أمريكياً فقد حاز شرف كونه العضو الأجنبي الوحيد في الأكاديمية الفرنسية. توفي في باريس عام 1998.

جوليان غرين

باريس

أجرى الترجمة الإنجليزية في النسخة ثنائية اللغة : جي. أيه. اندروود

الصور: جوليان غرين

المحتويات

- 1- كثيراً ما حلمت بالكتابة...
- 2- باسي
- 3- كنيسة سان جوليان الفقير
- 4- الحي السادس عشر الراقي
- 5- المدينة السرية
- 6- القصر الملكي
- 7- في كنيسة نوتردام
- 8- دُرُج ودرجات
- 9- كنيسة فال دو غراس
- 10- بشاعة الكلية
- 11- صومعة آل بيت
- 12- التروكاڤيرو يتحدث
- 13- المتاحف، الشوارع، الوجوه
- 14- باريس المسحورة
- 15- صرخات تائهة
- 16- منظر باريس
- 17- اسمعني أيها الحطّاب
- 18- مدينة داخل مدينة
- 19- زخر المستقبل
- 20- ملاحظات

21- تفاصيل ببلوغرافية

باريس

"... شكل المدينة يتبدل وآسفاه، بأسرع مما يفعل قلب الإنسان..."

بودلير، أزهار الشر

(89، " البجعة")

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

1

كثيراً ما حلمت بالكتابة...

كثيراً ما حلمت بتأليف كتاب عن باريس، يكون مثل إحدى النزهات التي تتسكع فيها طويلاً دون هدف، والتي لا تجد فيها أيّاً من الأشياء التي تبحث عنها، ولكن الكثير مما لم تتشده. في الحقيقة تلك هي الطريقة الوحيدة التي بها أشعر أنني قادر على تناول موضوع يضع ثقتي بنفسي على المحكّ، بقدر ما يغويني. دعني أقل لك الآن إنني لن أذكر أيّاً من المعالم الأثرية العظيمة، أو الأماكن التي تتوقع أن أتناولها بالوصف كما ينبغي. ربما لكثرة ما رأيته، لم أعد أرى فيها جمال العمارة الباريسية بما يلزم من انفتاح الذهن والتقبّل. وإن انحزت إلى أو ضد أي منها مسبقاً، فقد قضي الأمر، ولست أنا بقاضٍ عادل. لقد تمنيت كثيراً أن يستقر برج إيفل في قاع المحيط، وسأكون سعيداً لخبر اختفاء اثنين من الأمكنة ليلاً، أحدهما صغير، والآخر كبير، يشوهان ساحة الملكة. ولا أذيع سرّاً إن قلت إنّ المباني العتيقة هي الأثيرة عندي، ومع ذلك قد ينتابني ملل حد البكاء إن اضطررت لكتابة صفحة عن فندق انفاليد. ومع حبي له لا أعرف حقاً ما أقول. عليّ أن أذهل أمام روعة كنيسة نوتردام. ولكن بلا شك أسكتني العار مما قد أسمعهم يهتممون به، وأعجب (دون حسد) بشجاعة من تدعوهم مشاعر العظمة، أو العبقرية المحضة لتولي مهمة عظيمة كهذه.

الصمت أرحب لي، فنوتردام هي ببساطة نوتردام، وحسب.

سأرى باريس دائماً كمسرح رواية لن تكتب قط.

في اوقات عودتي من النزهات الطويلة على الأقدام، عبر الشوارع العريقة وقلبي مفعم بكل ما رأيته من أشياء عصيّة على التعبير!

هل هو وهم؟ لا أعتقد. يتكرر حدوثه، عندما أتوقف فجأة أمام، قل، نافذة واسعة مزينة بستائر تشبه الدانتيل، مسدلة في احد المنازل القديمة، وأشرع في حلم لا نهاية له، خلف الواجهات المجهولة التي تتكشف وراء ألواحها المظلمة. ترسم عيني باقة صغيرة من الأزهار التي تتغير أو تختفي مع الفصول، وسط طاولة مغطاة بقماش قاتم، هذا كل شيء، لكنه قد يكون كافياً. من عاش في تلك الغرفة؟ من يموت بين هذه الجدران الأربعة؟ في عيني الروائي لكل حياة، حتى أكثرها تواضعاً، لهفة الغموض اللاسعة، وثمة شيء ما في مجموع جملة تلك الأسرار التي تضمها مدينة تُنطقه تارة وتخرسه أخرى.

يا لها من مضيعة فادحة للمواقف، والأحاديث، والدراما، والشخصيات، والخلفيات! من سيفلت من تأثير صراع كهذا؟ التقليد خارج الاحتمال، لا يقلد سوى الأغبياء والعجزة. لا، ينبغي أن تنتج شيئاً بذات الجودة من مواردك الخاصة إن كان ذلك ممكناً. وهكذا بدأ تعذيب فرخ الورق الغريب، حيث عليك أن تفتح نافذة ليست هي التي رأيتهما للتو، بل واحدة على ذات الدرجة من الإصرار على حقيقتها.

أثناء سنوات الحرب الطويلة، عندما كنت أعيش بعيداً عن باريس، كثيراً ما كنت أتساءل كيف لمدينة كبيرة جداً أن تجد مكاناً داخل حجرة العقل البشري الصغيرة. باريس بالنسبة لي صارت كعالم داخلي عبره أتجول في ساعات الفجر الصعبة هذه عندما يرقد الإحباط في انتظار النائم اليقظ.

ومع ذلك كان يلزمني الوقت لأخذ خطوة واعية فوق عتبة هذه المدينة السرية التي كنت أحملها بين جوانحي، أولاً كانت تلك الأسابيع السوداء التي في أثنائها كان مجرد ذكر اسم باريس يفطر قلب كل من يسمعه. لذلك أغلقت أبواب مدينتي أمامي، ونفيت شوارعها إلى أقصى مسافة ممكنة. لكن في الليل، كنت لأتسلل إلى شوارعها كجاسوس أو لص، هازئاً بأوامري، وأجول من منزل إلى آخر بلا كلل أو ملل. وفجأة كنت أظهر في غرفة توارى خلف جدرانها أصدقاؤني. "ماذا – أنت هنا؟ هذا أنت!" ويبدأ واحد من تلك الحوارات اللانهائية، ولا ينتهي حتى طلوع النهار. الأشياء التي لم نكن نستطيع قولها لبعضنا البعض وعرض المحيط الأطلسي يفصل بيننا، حكته القلوب إلى بعضها في تلك الحوارات الخيالية. اختفت كل المياه التي كانت تفصلنا، وألغيت المسافات؛ كنت هناك، راغباً في معرفة كل شيء. وأنا أغادر اعتدت لمس أحجار المنازل، وجذوع الأشجار بيدي، وكنت أستيظ على شعور عجيب بالرضا والإحباط في آن.

بتفكيري المتواصل في العاصمة، أعدت بناءها داخلي. استبدلت الوجود المادي بشيء آخر. شيء يكاد يكون خارقاً للطبيعة؛ لا أعرف ما أسميه. كانت خارطة لباريس معلقة

على الجدار لتأسر نظراتي لفترات طويلة من الزمن، تعلمني أشياء تكاد تكون باطنية. لقد اكتشفت أن باريس تشبه في شكلها الدماغ البشري.

روادنتي ذكرى لدماغ رجل مقسوم إلى اثنين، ألفتُ النظر إليه وأنا طفل في نافذة محل النظاراتي، والتي تعرض للمهتمين من المارة كامل محتويات الجمجمة. اعتدت أن أتفحص تلك الكتلة الملونة بالأبيض والزهري والأحمر بمزيج من الفضول والرعب. وتقلق بالكوابيس نومي في الليلة التالية. ولم يكن يجدي نفعاً ما أقوله لنفسى من أن ذلك الشيء مصنوع من الورق المقوى أو البورسلين: كان هذا يثير تقززي بالقدر ذاته. وحتى أكون منصفاً، لابد أن علماء فراسة الدماغ أرادوا حماية ذوي الطبائع الرقيقة مثلي، ووهبوا الرجل ذا المهارة الشيطانية، سيماء اللطف، والمبالاة المبهجة في غالب الأحوال. لم يبد أقل معارضة للكشف عن دماغه حتى إنه قام بتزيينه، حيث ألصقت ديباجة صغيرة على كل تجعيدة. لأنّ هذا كان مثار الاهتمام في هذا الاكتشاف: أنت خائف، ولكنك اكتسبت معرفة؛ رأيت على سبيل المثال موقع الذاكرة، أو الخيال، أو اللغات، أو ملكة المنطق. كان الأمر مرعباً، لكن مع ذلك تشعر بالحماس من فكرة أن تحت فروة رأسك هذا الكيلوغرام من المادة الرمادية المفكرة القادرة على فعل الكثير. أنا شخصياً شعرت بالفخر وفي الوقت ذاته بشيء من الغثيان. ولم أعد أرتعد ولو قليلاً خوفاً من اختصاصي فراسة الدماغ، ولكني ما زلت في عجب مما تستطيع أدمغتنا إنجازه بقليل من إعمال الفكر. لم عليك سوى فتح صحيفة ما وترى ما صنعناه من عالمنا، حتى تقرّ تماماً بأننا أفضل المخلوقات حقاً!

وعلى أي حال فقد ساعدتني خارطة باريس في أكثر من مناسبة على تجاوز بعض الأوقات العصيبة. وبمصادفتي هذا التشابه مع الدماغ البشري، سعيت لاستيعاب جميع التلايف التي لاحظتها بين حدود هذه المدينة وأنا طفل. على سبيل المثال كنت أجد متعة في افتراض أنني ولدت في منطقة الخيال، ونشأت في نطاق الذاكرة، ولست على ثقة من مواقع الإرادة، والتأمل، وإصدار الأحكام. ظللت أحولها من حي إلى آخر، وأحياناً بدا لي أن على العاصمة أن تستدعي تاريخها عبر وساطة الماريال¹، وأداء مهامها الفكرية بمساعدة الحي الخامس، وعمليات الجمع في حي البورصة، ركضاً عبرها جميعاً، مع إن نهر السين كان هناك، والذي بالنسبة لي كان يمثل الجزء المؤسسي المسكوت عنه من طبيعتنا، مثل تيار عظيم لإلهام فضفاض في بحث أعمى عن محيط ترتمي بين أحضانه حتى الغرق.

لم ألحظ وأنا أعيش هذه الفترة أن باريس كانت مهددة بخطر التحول إلى مدينة أكثر تجريداً كل يوم يمر. كنت أراها على ما يرام، لقد اعتدت النظر إليها دائماً، ولكن مرة

¹ Marias أحد أحياء باريس، يتميز بتمسكه بالتقاليد الباريسية العريقة وعمله بها حتى الآن. [المصدر]

بعد أخرى يساورني شك طفيف بأنّ حجارة مدينتي كانت تخسر وزنها على نحو ما. كما لو أنّها أفرغت من مادتها بطريقة غامضة. كنت أفقد شعوري بصلابتها تدريجياً، ما أصعب قول هذه الأمور! لقد كانت باريس الرؤى هي التي أسير فيها الآن، باريس التي على الرغم من شدة حقيقتها، كانت تهاجر خلصة من الجسد إلى الروح.

أُتيحت لي خلال ساعات من عودتي لفرنسا الفرصة للاستمتاع باقتراب الأمر أحياناً من العالم الخفي الذي نتحرك فيه. في يوم ما، عاودتني رغبة قديمة- تكاد تكون منذ الطفولة- لتسلق أعلى نقطة في باريس حتى أحصل على أكبر منظر ممكن. كم لمت نفسي في أمريكا، على عدم صعودي إلى قبة كنيسة القلب المقدس!

إنّ المكان الذي يدفعني إليه الآن فضول زائر نادم من الأقاصي، ممزوج بحب ماضٍ. لذلك قمت بتسلق خطير، ووصلت إلى السماء، تجاهلت حركة معدتي، ثم فتحت جفني ونظرت. شعرت كما لو أنّ المدينة كلها اصطدمت بصدري. هكذا استعدتها. كان الشتاء في آخره، وقد احتضن ضوء مارس المبهر كل شيء بالفعل. وأينما اتجه منك النظر ثمة باريس، عليها رداء كالعباءة، ما انفك ينزلق عن كتفيها، وظل من الغيوم العظيمة التي طاردها الرياح في اتجاهات السماء الواسعة.

ما أكثر ما رأيت تلك الكتلة الهائلة من الحجر مرات لدرجة أنها لم تفاجئني. لكن كيف لم تفقد غوضها! عنفوان وجودها الساكن! كتلة سوداء مرصعة بأشعة الشمس على نحو يحاكي تلؤلؤ موجات على سطح بحر مضطرب، لم تكن جميلة، بل كانت هائلة، متجاوزة كل ما يبذله الخيال من جهد لتصوير ممالك العالم وقد احتشدت عند أقدامنا، وفي بعثرتها شيء من الإفراط الذي يبعث على القلق، كتحذير جزافي لقانون صعب لم يكتب.

من الواضح أنّ المدينة كانت تجذب الغضب، المدينة التي يحدق بها الخطر دائماً لأنها- تحت غواية كل أشكال العظمة الممكنة- لم تستطع أن تنطق بكلمة الرفض الصريحة التي ربما كفلت لها أماناً من مصير محتوم. وبطريقة ما يصعب تحديدها، تعطي قبابها وأبراجها انطباعاً بالوقوف في وجه شخص ما، تماماً كما يشكّل توزيعها على السهل المرتفع منظرًا يتسم بالعناد والخطورة والترفع. تخص المدينة بلا شك بابتسامتها من يقتربون منها متسكعين في شوارعها، وتخطبهم بلغة الإلفة والإطمئنان. روح باريس، مع ذلك لا تُدرك إلا من على البعد، ومن عليّ، وفي صمت السماء فقط تسمع للفخر والإيمان هتافاً عظيماً ومؤثراً يناطح السحاب.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

2

باسي

لم يكن حجر الموديل التي أنوي رسمها أبداً مكاناً مثالياً للجلوس. تراجع، ولو خطوة واحدة، وستفوز بذلك. هذا ما زاد من صعوبة كتابة أي شيء عن باريس أثناء وجودي فيها:

هيا، انهض وابتعد. من هنا في كوبنهاجن، أراها سافرة وضّاحة، تعبر النوارس نافذتي كالسهم، وهي تطلق صرخة عجيبة قصيرة مثل طفل أنهكه المرض، وقد مزقت أبراج الأجراس بلونها الأخضر اللوزي سحب الضباب الهائمة.

كيف كانت باسي التي عهدتها؟ أسائل نفسي، ولا تسعفني الذاكرة بجواب. زرت المكان بضع مرات فقط، لكن تتدافع الذكريات نحوي، فتغير نظرتي إليها. لا تربطني بالحي القديم بباريس الذي أعيش فيه الآن صلة قوية، الحي السابع، أما عندما أسير في باسي، فكنت أتسكع داخلي، ودائماً ما أعود إلى طفولتي.

كان الحد الفاصل في أدنى شارع رينوراد. هناك بضع درجات شديدة الانحدار فتتوقع أن ترى حصاناً يجفل مسرعاً، كما يحدث أحياناً مع جياد الجرّ، إما وهو منحدر على الشارع المذكور أعلاه بأقصى سرعة، أو مكبوح جماحه بقوة سائسه في شارع دي بولانفيليه المعروف بانحداره المثير للدوار. ترى من البيت الذي عشنا فيه مستودعات الغاز المُعْرِبِسة تلك، تشرف من على الأفق كطبول سوداء هائلة. ومن ورائها على الجانب الآخر من الساحة، كانت أوتويل، وأشجار الدُلب بشارع لا فونتتين. لم نسلك هذه الطريق كثيراً، ولكننا كنا نعبره أحياناً. نتسلق التل بأنفاس متسارعة، قليلاً، كنت أحمل في إحدى قطعة بسكويت، مطبقاً عليها قبضتي. إلى اليمين قامت منازل البلدة القديمة جنباً إلى جنب في مربعات تتدرج معاً. بخدودنا الملتصقة إلى قضبان البوابات، تعودنا أن نمتع أنظارنا بالحدائق الغناء التي كانت مسافاتها المزرقّة بالنسبة لي محببة كمنظر مسرحي، كأنها جزء من لوحة تنتهي إلى ضفة نهر السين. ومع ذلك كانت بهجتي لا تُحد، عندما يُسمح لنا بنزول الدرجات المؤدية إلى شارع بيرتون. كنت

عندئذٍ أخالني في الريف. مثل كل أهل باريس، كنت أرى في الريف أسباب الملل، ولكن لم يمنع هذا أن تتملكني رغبة عارمة في بعض الأحيان للاستلقاء على العشب، واستنشاق عبير الأرض الزكي- حتى وإن تلبستني بعدها برقع ساعة لهفة عارمة إلى العودة للشوارع والمتاجر. وليكن ذاك ما يكن، في وقت حديثي عنه، كان شارع بيرتون ما يزال طريقاً قروياً طويلاً يمر بين أسوار تطل عبرها الأشجار كالقبعات. ربما خطر لك أنك في رحلة لا تفصلها عن باريس سوى ساعة زمن. يسود صمت عميق، ووقع أقدامنا على الصخور العملاقة المستديرة لم يكن مثل صوتها في المدن. وكان أحد مصابيح الشارع يتأرجح مع الهواء، أقسم أنه فعل، وثمة حجر يعلم موقع التقاء ضيعات باسّي واوتويل. أثار في نفسي حماسة عظيمة وشجاعة لأقول لنفسي إنني عشت في ضيعة باسّي. استولى عليّ حنين لعهد آخر، حتى إن مجرد الكلمات كانت كافية لتغرقني في حزن شهّي. ظل الطريق ينعطف في زوايا قائمة من بعد منزل بلزك²، وأرض قصر أميرة لامبال حتى نهر السين، حيث ينتهي الآن فجأة، ولا يكشف الامتداد القصير إلى اليسار سوى القليل جداً عما كان من الرحلات البديعة في القرن الثامن عشر. ما حدث لركن باسّي صدمني بما في قبحة من كآبة وابتذال، ولم يكن ذاك مثار سخط واستياء بقدر ما كان باعثاً على الملل، و"اليأس الصامت" الذي لاحظته إيمرسون³.

في يوم شتوي رتيب، والرياح الشمالية القاسية تعصف تحت سماء مكفهرة، لم تخطر على قلبي بيئة أفضل للانتحار أو تنفيذ عقوبة الإعدام. مدهش جداً تأمل كيف يبدع ربع قرن من الزمن في سلب هذا الجزء من المدينة سحره وفتنته. أعرف أنّ الحداد على رحيل قطع من الأحجار القديمة أمر غريب وبلا معنى، ولكنني على يقين من أن لا متعة ترتجى من النظر إلى مجمعات الشقق السكنية التي تحاكي الحصون، مشيدة اليوم على مرتفع من الأرض، حيث مازلت أذكر رؤيتي صفاً من القصور.

² أديب وروائي فرنسي ومؤسس الواقعية في الأدب الأوربي. [المترجمة]

³ في إشارة لمقولة رالف و. إيمرسون، "يعيش معظم الرجال حياة اليأس الصامت". [تشيع خطأ نسبتها لصديقه هنري ثورو]

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

3

كنيسة القديس وليان الفقير

يوم صيف قانظ مناسب جداً لفتح الباب المتهالك قليلاً الذي يحجب كنزاً ثميناً من الهواء المعتدل الحرارة. أدلف أنا، وأقف في سكون. هنا تخفت ضجة باريس العظيمة حتى تصبح مجرد غمغات، يغلبها الصمت الأعظم بين جنبات هذه الكنيسة الصغيرة. تشع الأعمدة العريضة لمعاناً وردياً في ضوء الظهيرة الذي ينحدر من الزجاج الكريستالي المصفوف بين الألواح الزرقاء للنوافذ الضيقة. تدعم الأعمدة القبو الأسطواني الروماني، الذي يتخذ تحته الفكر أجنحة كطير تحت مظلة الغاب. قوية هي ما زالت -هذه الأعمدة-، كما لو أنها بانتظار قيام الساعة. سادرة في تأمل يقطع ما بينها وبين عصرنا من صلات. مثل ملوك يهيمنون في أحلام العظمة، تستهزيء بقلنا العصري الحزين الذي كان لي منه نصيب، وقدمني على حين غرة، هدية للسلام الذي حل بين تلكم الأعمدة الراسية. على رؤوسها تيجان بزخارف نباتية، تحملها باتجاه المذبح كسلال قرابين في موكب دام ثمانمائة عام، وهنا سيرينات مجنحة، وفرسان مسيحيون كرموز للخواطر الجلييلة التي يرسونها تحت سماء القبو المستدير. ربما كانت هذه هي البقعة التي جثا فيها دانتلي بين الجدران الملطخة باللون الأخضر، كأن المحيط هو الذي ضمخها بيخضوره، هذا حيث يصف النبي ما لا يرى بأوصاف البهاء، وتطفر للذهن بعدها ذكرى شارع باريس الضيق تأخذ تأملاته بعض الراحة في رحلاته داخل أغوار النفس وأعماق الوجدان. من الصعب تصوّر فخامة ماضي كنيسة القديس يوليان الفقير اليوم. كأنها انتظرت عصرنا الحديث العبوس حتى تفي اسمها استحقاقاً. لا يسعنا إلا التقاط ومضة خافتة من حالها وقتما كان بجوارها دير، يهزّ خمسون راهباً دهاليزه بترانيمهم، ومن الصعب علينا فهم أن واحداً من أعذب الطقوس في العصور الوسطى كان يعقد في مكان لم يُعبه سوى فقرنا الروحي، لكن هذا هو المكان ذاته الذي شهد تسليم رئيس جامعة السوربون عباءته المصنوعة من

فرو الفاقم، والحقّ المخملي الذي يحتوي على ختم الجامعة لخليفته. وهنا، أيضاً، في شهر يونيو من كل سنة، كانت هيئة التدريس تجتمع بأبهة عظيمة، قبل التوجّه إلى المعرض السنوي في ساحات كاتدرائية القديس دوني لشراء اللوازم الورقية. تفيق شوارع غالاندي، و دو فوري، و سان سيفرين، وسان جاك على إيقاع الطبول ونغمات أبواق الطلاب، الذين لوّح الكثيرون منهم بالرماح، والسيوف أو العصي ليس لشيء سوى يفاعلة السن والولع بالصخب.

ومن حياة كاملة مفعمة بالبهجة، تنتمي لعصر لا قبل لنا بموافقته، ما الذي بقي لهذا الحي عدا اسمه؟ إنّه شارع دو فوري، الذي يذكرني بجلوس البابا اوربان جوار الطلاب ليس على مقاعد دراسة، بل لدى أقدام معلمهم. كانت الأرض قاسية لا راحة لجالس عليها، فكان الفتى يركض إلى بائعي الشوارع الذين يعرضون القش للحشايا في ظل كنيسة القديس يولييان. لا يمنعني شيء من تصور دانتلي يفعل ما يفعله الجميع، ويأتي هنا طلباً لحزمة قش قبل حضور دروس معلمه المتميز برونيتو لاتيني الذي ألقي به في الجحيم في آخر المطاف، بيد أنّه فعل ذلك بطريقة عوض عنها بالحق اسم شارع دو فوري الصغير بثلاث⁴ الفردوس.

رفض القرن السابع عشر جنون السلطات في الكنيسة الموقرة، وأتهمها بالبربرية. لا شك أنّها لم تعد من الأهمية بما يكفي لعصرنة كاملة، وعلى الأرجح أيضاً، كانت كنيسة القديس يولييان تقع في أقصى حدود العمارة الرومانسيكية، مع أنّها كانت هدفاً للطراز الحديث في مهد انتشاره، إلا إنه لم يستهو معاصرو مانسارت بما فيه من سمات قوطية أثارت سخطهم، لحد أنّهم بذلوا أقصى جهودهم لهدم جزء من كنيسة القديس سيفرين، جارة كنيسة القديس يولييان الأقل حظاً. ولكن القديس يولييان نفسه الذي اختصر صحن الكنيسة مستبدلاً الرواق الرومانيسكي بواجهة خالها ذاك الغبي حليق الرأس لدوريك. وحديثاً، في تحوّل أخير، وضع الكهنة الأرثوذكس الشرقيون حاجزاً أيقونياً عريضاً ليفصل ما تبقى من إحدى أقدم وأجمل كنائس باريس.

وحتى مع ذلك، لم يذهب بما لكنيسة القديس يولييان الفقير من جمال غريب، وشباب غامض. بوسعك أن تراها بعين خيالك محفوفة بالحقول، لأنها حازت من السحر ما يميز الكنائس الريفية. إنّها راسخة، غانية عن الفن، مختلفة عن درجات كنيسة سان سيفرين المحمومة، التي تنسحب على نفسها وراء سُرّ هائلة من الظلال. تعانق كنيسة القديس يولييان النهار وتعكس جدرانها الضوء حتى الغسق، إنّها ثابتة، متينة، وواضحة كأحد براهين فيلسوف معلّم. لا الشك ولا الرؤى المثيرة للحزن قادرة على تعكير

⁴ الجزء الثالث من الكوميديا الإلهية: بعنوان الفردوس [Paradiso] [المترجمة]

صفو عزلة تأمل مطمئنة في قلبها. إنه قديس وديع القلب، جالس في رداء أبيض على ضفة نهر الغال.

ربما لم يكن غريباً عليك أن تستطيع دفع باب جانبي صغير داخل كنيسة فينفتح لتجد نفسك في قطعة من الأرض غناء، خضراء، حيثما سارت خطاك تتعثر ببعض من أقدم حجارة باريس. صلب منها الجانب المتاخم لمرقد القديس يولييان، ثم يشهق واحد من آخر أطلال "سور فيليب أوغستي" فجأة وسط العشب الطويل كصخرة تبرز من البحر، وشجرة متشابكة تعالج ميتة بطيئة تحت ثقل القرون المديدة، ما تزال تنبت أوراقها الراجفة من فوقنا.

من يذكر ذاك المكان؟ كم يشبه أحلام اليقظة. على البعد تبدو أبراج كنيسة نوتردام البيضاء في الطقس العاصف، سوداء في سماء يوليو، وقاطرة الزوارق على نهر السين ترسل زفرة حزن حري ممدودة، قبل أن تتلاشى النغمة الضبابية الطويلة، وتتبدد في الزرقة المترامية من خلفها. ومع ذلك بدت رياح باريس كأنها تحتضر على أطراف تلك العزلة الصغيرة التي أحببت المجيء إليها ومثلي خواطري. الصمت حولي ملاذٌ يفر إليه الماضي، تلك السكينة النفسية بدت لي كأنها تحمل شعوراً حقيقياً بفرنسا الرومانسكية، التي تجسدت في أحجار كنيسة القديس يولييان العتيقة منها صورة محسوسة. كان ما جذبني إليها ما في أناقتها من نكهة الزمن العتيق، وحدائقها التي ادخرت في قدسية عجائب الصمت، وتغريد البلابل.

باسي الأخرى، باسي الفخمة، التي نفرت منها طفلاً. كان ثمة نوع من الثراء أثار في الرغبة في البكاء لما في تلك الشرفات المزهوة من حدة وغرور، مداخل العربات التي تجرها الأحصنة لا تعرف الحفاوة، ومساكن الحمالين الفخمة، إلا أنها ليست باسي الحقيقية. رسمت خطأ بين الحي السادس عشر، وضيعة باسي، قرية باسي القديمة، التي تنحدر على صفحة التل إلى الجنوب من الشارع الرئيسي السابق، الذي سمي مرة على مارا⁵(فكرة مروعة!) قبل أن يصبح معروفاً باسم شارع دي باسي.

لم يتبقَّ شيء من ذاك العالم المصغر الذي أدين له بالكثير، ما عدا بعض الأطلال المتداعية. قال غوتبير إن باريس صباه لم تعد كما هي. وعندما أسير من باسي إلى نهر السين، أتساءل أحياناً أين أنا وما إذا كنت أحلم. عزائي الوحيد في أوج هذه المحنة وجدته في جوف جادة هنري-مارتن عندما في وقت مبكر من الصيف- تحمي أشجار كستنة الهند ما بقي من البرودة في قبوها المنيع، وأنا أتحسس، في هذا النفق الأخضر

⁵ جان-بول مارات سياسي وعالم فرنسي. (1793-1743)[المترجمة]

الذي تنيره أعمدة من ضوء الشمس، فارسًا وحيدًا، ذاهلاً عن عصره، يفر نحو الأمس بأقصى سرعة.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

4

الحي السادس عشر الراقي

--

ربما في مثل هذا الوقت من السنة، أوائل شهر أبريل، تبدأ أشجار الكستناء بحديقة تروكاديرو في الاخضرار. ثمّة واحدة تمتد أفرعها فوق حاجز محطة مترو الأنفاق، تحاول في براءة استغلال تلك الأنفاس الساخنة المسمومة. تنفتح أوراقها الجديدة، ثم تنفرد واسعة مثل أيّ صغيرة طامعة. قبل أن يطول بها الزمان، ستحمل شموعها، وستكون- إن صدّق تذكرّي - حمراء اللون.

هو- الشجرة- غلام، باريس، لعوب يافع، يحبّ رائحة مدينته، وهو أول من يتخطى عتبة الربيع-من عشيرته- مزداناً بزخرفة أوراقه، وجوز كالفوانيس الورقية. أسميته في في زمان تقاسمنا فيه هواء المدينة- أنا وهو- "كستناء المترو"، وشعرت تجاهه بتلك الصداقة الفريدة التي نخص بها الأشجار وحدها.

ومنذ أن ذهبت إحدى الظواهر الغريبة بقصر تروكاديرو، ولم تُبق على شيء منه سوى جناحين على الجانبين، تغيرت ملامح الساحة المفتوحة أمامه كثيراً. قبل بضع سنوات، كان أشبه ما يكون بمقبرة، بعد أن فقد الدرج البديع ذا العتبات المنخفضة. بالنظر إلى أعلى، ترى صفّاً من أشجار السرو السوداء التي تبرز من الخلف لتقف كما يقتضي التقليد بين جسدي ماري باشكيرتسيف، وإدوارد مانيه في الحياة وظليهما بعد الممات. وإلى الأسفل فرانكلين العجوز وهو يرمق الحافلات المارة بعين الرضا، حيث كان عدم الترابط بين جميع هذه الأشياء هو سر السعادة الفائقة. شارع فرانكلين، سيدة مسنّة عرجاء، تثب وهي تنزل على طول شارع دي باسي المنحدر. بمحاذاة المقبرة، تطل منازلها على أحد جناحي قصر تروكاديرو، تقف على ما يبدو على أصابع قدميها من أجل لمحة للمباراة القائمة-نتيجة معروفة مقدماً- بين البانثيون وقصر الانفاليد. تعلقت نظرتها للحظة في حدائق ذات ممرات عميقة كالمغارات، حيث ما زالت الظلال صامدة

في الظهيرة. ثم في آخر شارع لو تاس، أرسلت نظرة سريعة باتجاه برج إيفل، حتى تتأكد من وجوده في مكانه قبل أن تعدو بين بائعي التبغ، ومتاجر الخردوات حتى مفترق الطرق في نهايته، حيث يقف مصباح غاز حزين ناظوراً على المدخل المؤدي إلى شارع باسي.

إيه، يا شارع باسي- متاجرك محفورة في ذاكرة قلبي، وباعة الجوارب على الممرات العريضة، ولافتاتك التي كانت مذهبة يوماً ما، ولوحات على رخام معامل الألبان، وفراديس الحلويات، كوكيلين، بتي، بوربونو، وبائع المحار تحيط به سلاله، يحمل سكيناً صغيرة، و متجر الأحذية حيث اعتادت مربيتي لينا أن تشتري تلك الصنادل المزينة بكرات من خيوط تحاكي زرقاء السماء ألوانها، والمكتبة حيث الملفات تصطلي بوهج الشمس على أغلفة الكشاكيل، ومتجر نيكولا العبوس، تاجر النبيذ، وصيدلية السيد بوديشون (كانت له لحية رائعة)، والحروف المذهبة الجميلة ترتفع على شرفة، معلنة للجميع بلا استثناء أنّ جراح أسنان يعيش هنا، ورأس جوادٍ، مطلي بالذهب هو الآخر، فوق بوابة مدرسة الفروسية، ومتجر صانع الساعات، حيث المالك يجلس بجانب طاولته، وهو يصلح ساعة صغيرة، وشذى فردوسي لأولى زخات الليلاك التي احتفظ بها بائع الزهور ذو اليدين الحمراءين، تحت قوس مدخل رقم 93، والشياخ المسلوخة في مآزرها البيضاء النقية تتدلى وسط أكاليل الغار في حانوت القصاب، تحيط بها ثنيات بارزة للستائر الفخمة القرمزية المخططة، وبهرجة بائع العطور الساحرة، وأوعية العشّاب، ونظرات المساعدين التي ترشق سيقان ربات البيوت من نوافذ أقبية المخازن، وشجار الكلاب، و السلال المتصادمة مثل مقدمات زوارق صغيرة متحاربة، والصياح، والضحك، وهدير الحافلات التي تنطلق بأقصى سرعتها وسط جميع هؤلاء الأشخاص دون أن تدعس أصبع أحدهم الصغير، والصفيرة الحلوة السائلة التي يرسمها ميزابٌ على طول الحاجز الحجري.

وأنا ما زلت مستلقياً في الساعات الباكرا، أخرج أحياناً مرة أخرى- في تلك النزهة المستحيلة على قدمي، وإن رحل بي الخيال، كما فعل مرة، لأخذ بعض الكتب لمحل تجليد أفضله بالقرب من شارع رينورد، أتردد هل أسلك شارع الانوسياسيون، أم شارع جان بولون، وفي كل مرة تقريباً يقع اختياري على الأخير، وهذا بسبب مستودع فحم فيه، كان في جماله اللا إنساني سحر منظر على سطح القمر. تمنيت أن أنظر إلى تلك الأهرامات في سواد مرصع بذرات برّاقة من الفضة في هندسة بابلية الطراز من أكاداس الخشب المكرّد. أحب أن أنتشق رائحة الخشب السحيقة والفحم الصلب والفحم الحجري، قبل أن أغادر المستودع الذي زرته في أحلام سرنمتي وأجد نفسي من جديد في شارع صغير ينتهي عند كنيسة القرية.

تعال معي نسلك هذا الدرب، ونلتقي أشباح سنواتنا الأولى. اركض، أيها التلميذ، اركض وحقبتك ترتج بين لوحتي كتفك، اهتف، وصح بلا سبب، سوى متعة أن تكون حيًا ترزق، ألق نظرة سريعة على متجر التحف، حيث ينال القط الرمادي وسط سيوف اليوتوغان التركية، والشمسيات، والمرواح، تابع الركض مسرعاً مروراً بمتجر الطراز، وهي تبلي عينيها في خياطة حرفين على شراشف في بياض الثلج، وتابع الركض، ماراً بمعالج الأقدام الملتحي وهو يمسح بنظره الاسفلت الطويل من نافذته، ولا تقف، اركض حتى الأسد البرونزي الذي يراقب بوابة فيلا فودور. ولكنك سريع جداً، حتى إنك غبت عن ناظري. هل هبطت إلى الكنيسة حيث تتراقص ألسنة اللهب أمام مغارة لورد؟ هل اندفعت تعدو في شارع راينورد حيث يحتاج حصان العربة إلى أن يُساس ويُلجم؟ لن أطارذك، شبح صغير من عام 1908. تغيرت أشياء كثيرة إلى الأسوأ في مدينتنا، إلى حد لم يسعني معه الابتسام في وجهك مبتهجاً كما يحلو لي.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

5

المدينة السرية

ربما كانت باريس مدينة تنطق أفضل بصيغة الجمع كما أثينا الإغريق قد دعيت "Athens"، لأنَّ هناك الكثير من البياريس. وباريس السياح لا تمت إلى باريس الباريسيين إلا بصلة سطحية. يسوق الأجنيبي سيارته في أنحاء باريس من متحف إلى آخر، في غفلة واضحة عن عالم يمر به دون أن يراه. ليس إن لم تتظاهر بمعرفة مدينة ما جيداً ما لم تمنحها وقتك. لا يمكنك التعرف إلى روح مدينة رحبة بسهولة ويسر، بل عليك أن تعرّض نفسك لمشاعر الملل فيها، حتى تظفر بالتواصل معها، وأن تعاني قليلاً في ما حوته من بقاع وأماكن. كائنات من كان يستطيع الإمساك بدليل مسافرٍ ويؤشر

على جميع المعالم، ولكن وراء أسوار باريس مدينة أخرى، صعبة المنال مثلما كانت تمبكتو في وقت ما.

أسميها المدينة السرية، لأنَّ الغرباء لا يدخلونها، وتحذوني رغبة لأن أدعوها مقدسة، وبما فيها من معاناة صارت-بعد- أعلى. يعرفها الباريسيون جيداً ويجدون وجودها طبيعياً جداً حتى إنهم لم يحلموا قط بالحديث عنها- ما عدا الروائيين والشعراء بالطبع، مَنْ عملهم هو رؤية- كأنها المرة الأولى- أشياء لا تجذب انتباهنا، بأعين جديدة تماماً. حتى وإن لم ينجحوا دائماً في إخبارنا بوضوح عما اكتشفوه. فهم مثلاً قد يصفون كل شيء في مقهى صغير بجانب شارع دي بوسي، لكن تلزمه ما لبودليير أو بروسست من حساسية فريدة ليعكس ما يعرف بأجوائه في أيامنا هذه، وليترجم لنا السحر الكامن في منظر بشاعة بعينه، وليعبروا عن حس الرفقة الوثيق الذي تبثه سمات مكان ما لا يحسبه عادياً إلا الغافل:

النبات المزيّن بشريط أحمر مبتذل، والأريكة الجلدية متهتكة وتتقيأ خصلات من شعر خيل أسود. ومنضدة سطحها من الرخام الأبيض الصلب، ومسند الكتابة من القماش المشمع، وحامل القلم الذي ساعد في كتابة العديد من رسائل الغرام، وأجمل كلمات الوداع، وبجانبها زجاجة سيلتزر زرقاء شاحبة- اكسسوارات احتفالية مقهى الحياة كما تجسدت في لوحة لبيكاسو أو ديرين.

من جانب ما هذه هي باريس. كل شيء في هذه المدينة له ميزة تستعصي على التحليل لكنها تجعلك قادراً على أن تقول دون تردد: " هذه هي باريس"- حتى إن لم يكن سوى وعاء حليب يتدلى من مقبض باب، أو واحدة من تلك المكانس الخشنة التي تكنس الأوراق في الممرات في أكتوبر بصوت كالبحر، أو أي صف من المجلدات التي بدا عليها الرهق في صندوق بائع الكتب على السدود ما بين الجسر الجديد، وجسر رويال. لا أعلم لماذا يحدث هذا، ولكن باريس تضع ختمها على كل شيء ينتمي لها. ربما حال تَشَتَّت انتباه السياح، أو شدة التعجل دون أن ينتبهوا لها، ولكن قلب الباريسي سينبض بسرعة- إن كان بعيداً عن باريس- لذكرى بعض آنية الزهور على حافة نافذة، أو صفارة صبي القصاب الرتيبة وهو يمر بدراجته. ارِه صورة لمتجر خباز بها طفل يأكل قطعة كرواسون، أو صورة منضدة أو كرسي على ممر مرصوف، ويقف بجانبها نادل في مريوله الأبيض، وتحت ذراعه منشفة، وسيفكر: " هذه ليست تولوز ولا ليون، ولا مارسيليا، بيد أنَّ المراقب العادي قد يندفع. إنَّها باريس. وضیعة كانت أم رائعة، لا تصنع باريس سوى باريس، ولتكن تلك رسالة، أو كسرة خبز، أو زوج جوارب، أو قصيدة. ما نقدمه للعالم، لم يستلف من أحد، إنَّه لنا. ربما أخذ منا، أو سرق منا، لكن أن نقلد؟ أبداً.

لطالما كنت أفخر بباريس لأنها مسقط رأسي. كأن كل نزهة قمت بها على شوارعها تنشيء رابطاً جديداً، غير مرئي ولكنه عنيد، يربطني بأحجارها. اعتدت وأنا طفل أن أتساءل، كيف مجرد اسم باريس يعني الكثير من الأشياء، الكثير من الشوارع، والساحات، والحدائق والبيوت والأسقف، والمداخل، وفوق كل التحولات، السماء الخفيفة التي تتوج مدينتنا، وكل ما ازددت تفكيراً فيها، عظمت دهشتي، كيف لاسم قصير كهذا أن يستوعب مدينة في رحابتها؟ طفقت أنطق المقطعين مراراً وأعيدهما لنفسى، حتى صار لغزاً كبيراً في ذهني لماذا- كنت أسائل نفسى- هذا الاسم دون غيره؟ وقع في ظنّي أن ترديد الاسم سيوصلني إلى اكتشاف حتماً، ولكنى في النهاية لم أكتشف شيئاً، عدا أن باريس تُسمى باريس.

والآن أرى نفسى أحياناً وأنا أتقلب في خاطري، ليس بعيداً عن تلك، في حين كان يكفيني أن أنظر من النافذة لأرى ركنًا من مدينتي، ذات الشوارع العريضة الطويلة التي كنت مولعاً بها مذاك. والآن لي فترة من الزمن بعيداً عن تلك السعادة، وإن أردت أن أرى باريس مرة أخرى، أجدها داخلي. يحمل كلّ منّا في داخله باريس طفولته، وصباه، وأحلامه، ويضمّر أثرة سرّية، لباريس التي دسّها في ذكرياته كونها – كما تبدو له- أجمل مما لغيره. سيصوّر أحد الباريسيّين أجمل الكنائس، قلبه يتسع لها جميعاً، وجميع صفوف منازل القرية في شارع دي ليل، وشارع غرينيل، وشارع دي فارين، وسيشغف آخر بالمرافىء، والحدائق التي تستلقي ناعسة في الصيف وراء بوابات عربات المنازل العتيقة، أو متاجر التحف بين نهر السين وقصر لوكسمبورغ، وسيحلم آخر في حزن بشقة صغيرة قديمة الطراز قد يراها في أبراج سان سولبيس، وقبة كنيسة فال دي غري، وذاك العالم كان يكفيه...

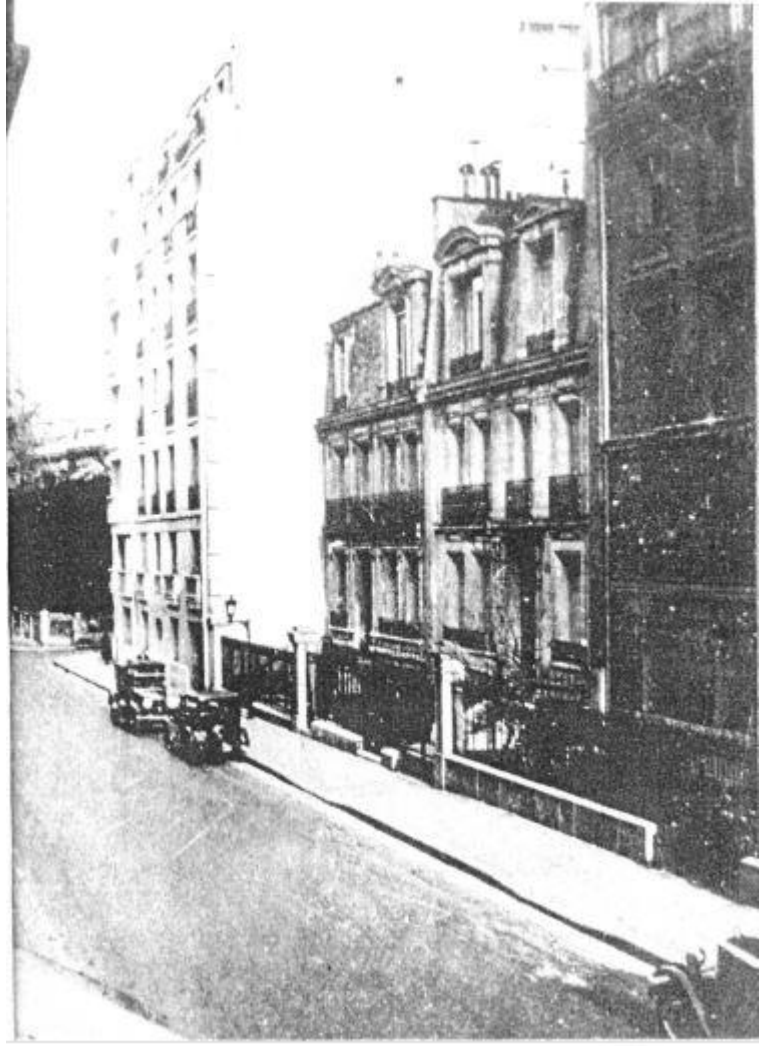
Paris
By: Julian Green

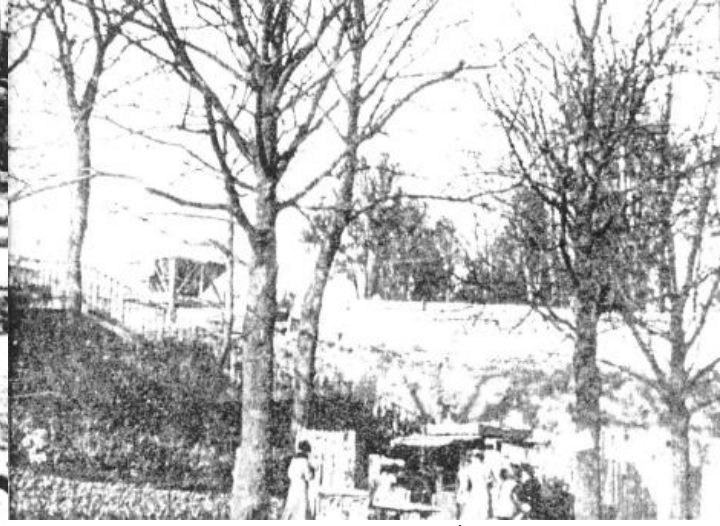
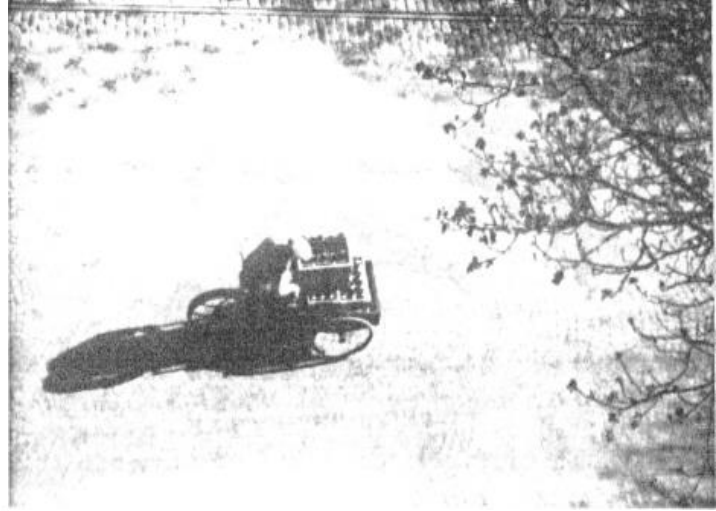
باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

6
القصر الملكي

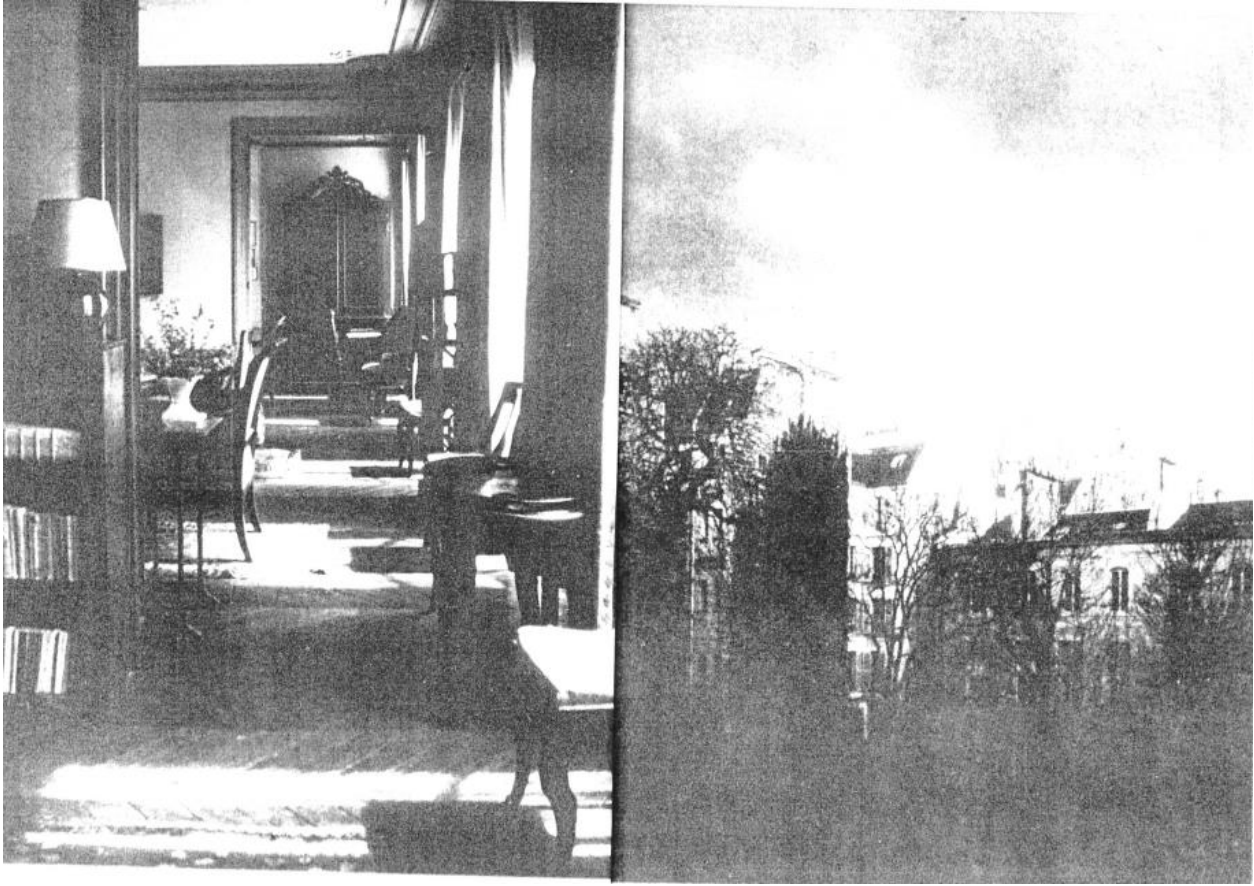
وجدت نفسي ذات نهار ربيعي، عندما أخذتني دروب العمل إلى جوار متحف اللوفر، مدفوعاً بصوت الشوارع في اتجاه الشمال حتى مدخل القصر الملكي، في شارع بوجوليه. وهو أحد الأماكن التي يكمن فيها شيء من الغموض يُدرك بالباطن لا الظاهر. ساورني وأنا أسير تحت القبو المظلم، بين الأعمدة التي لم يكن تناظرها واضحاً لي- بسبب خداع بصري غريب شعور بأنني أدخل غابة مسحورة، أترك خلفي حياتي اليومية، بسبب واحدة من مزايا باريس، واحدة من أشد فضائلها ندرة، والعصية على منال من لا وجود بوقته في حضرته، هناك فجأة، تكشف عن نفسها في حلة استثنائية، تثير كلاً من مشاعر متعة المفاجأة، والتوتر اللطيف الذي قد يتحول إلى رهبة في أية لحظة. أين أنا؟ هل- عندما عدت لأتتبع خطواتي، وجدت نفسي في العالم الذي أعرفه؟ تخطر مثل هذه الأسئلة على ذهن المتسكع، الذي أسلم نفسه، مثلي، إلى نوع من أحلام اليقظة، ولو هلة لم تتعد ثنائية أو اثنتين داهمني شعور بقبضة طفيفة كتلك التي تخالجك عند التفكير في أنك ضللت طريقك. هل هو ضوء تلك الظهيرة العاصفة، أم الشعور بالوحدة المفاجئة في تلك البقعة، أم الصمت بعد ضجيج الشوارع والميادين؟ شعرت كأنني أدخل بلداً جديداً، لم يُعرف اسمه في كتاب، وحيث كل ما خلناه ينتمي إلى العالم المادي، يصير بطريقة غامضة، كأنه جانب ملموس من عالم داخلي، أو ربما شعرت بالانزلاق فجأة وراء كواليس الواقع، لتكتشف سراً، لكن، أي سر أقل نفعاً من سرٍ لا تدرك معناه؟

شارع كورتامبير، كما يُرى من نافذة شقة
المؤلف، عام 1929

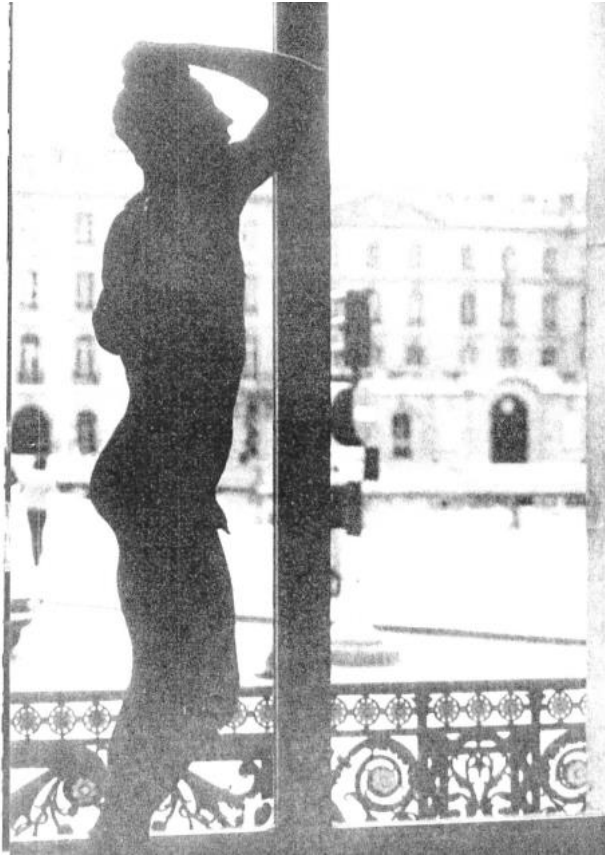




الأعلى: عربة ثلاثية العجلات، جادة ويلسن 1934 - الأسفل، شارع دي ريزيرفوار، الذي لم يعد موجوداً اليوم



عاصفة في شارع فانيو 1974
جوليان
منظر داخلي من شقة جوليان غرين التقطت من نافذة شقة غرين
بشقة باريس، شارع كورتامبير



إلى اليمين: نصب مهدي إلى ديلاكروا، في حدائق لوكسبورغ



Above: Dalou's monument, place de la Nation
Below: The Bishops' Fountain, St Sulpice



The Monument to Delacroix
in the Luxembourg gardens

إلى اليسار الجزء الأعلى: نصب دالو، ساحة الأمة، الجزء الأسفل نافورة الأسقف، القديس سوليبس.



Above: The parisian skyline, including the Sacré-Coeur,
seen from the Beaubourg
Below: Bookstalls near Notre-Dame



St Sulpice seen from the rue de Rennes, 1969

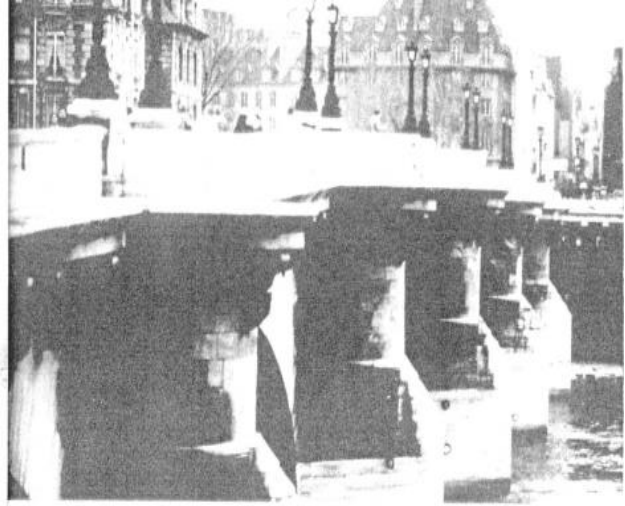
إلى اليمين: سان سوليبس، كما يرى من شارع ريميه، 1969

أعلى اليسار: مشهد أفق مدينة باريس مشتملاً على كنيسة القلب المقدس، كما يبدو من بيوبورغ.

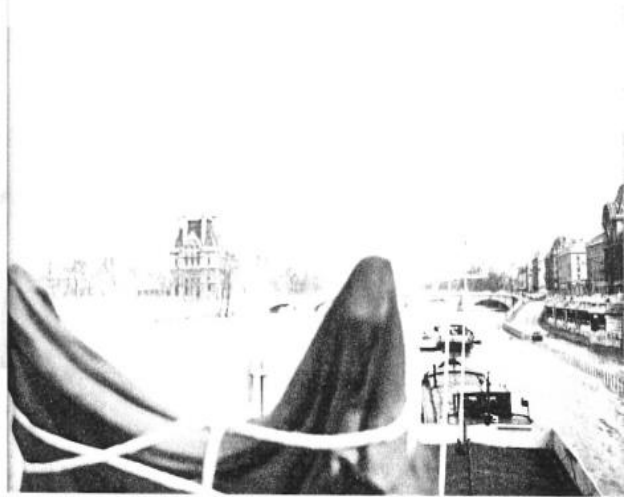
أسفل اليسار: أكشاك الكتب بالقرب من كنيسة نوتردام.



Place de la Concorde, 1925



Above: The pont Neuf
Below: The Seine in flood



إلى أعلى اليمين: الجسر الجديد

أسفل اليمين: نهر السين أثناء الفيضان

إلى اليسار: ساحة الكونكورد عام 1925

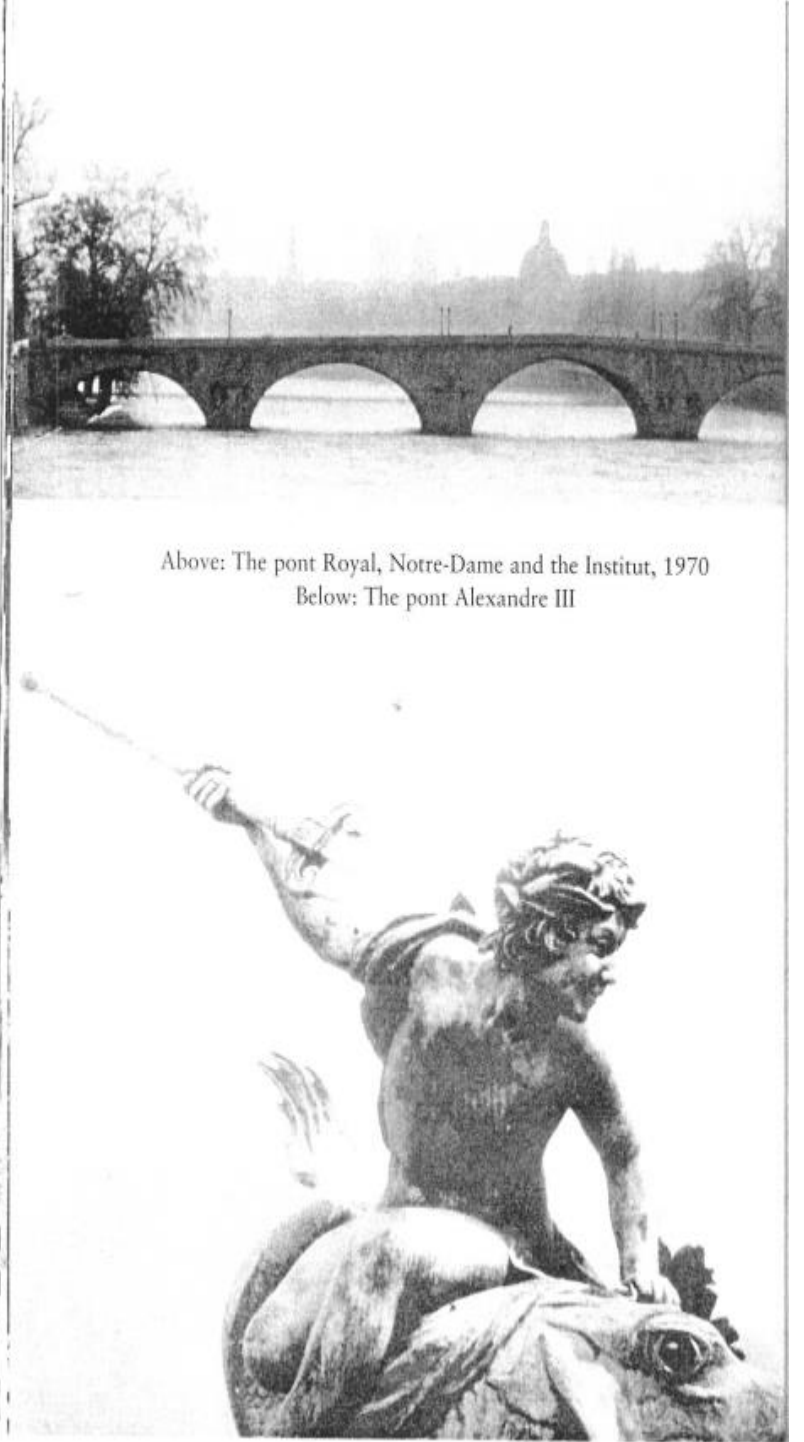
الحق أنني لم أعرف ما الذي جعل كل شيء يبدو أمامي مختلفاً؟ هل كانت في كل باريس بقعة ألفها أكثر من تلك المساحة التي تحدها من جانب بوابة من الحديد المشغول، ومن الجانب الآخر المتاجر المظلمة التي ربما كان أصحابها أشباحاً؟

استندت يدي على أحد الأعمدة البيضاء، وتقدمت بضع خطوات، لم أتقدم في ذاكرة حياتي بقدر ما فعلت في الذكريات المبعثرة لعرق كامل من الرجال.

وكن به هلوسة، اقتربت، ووضعت وجهي بين قضبان المدخل الحديدي، التي انعكس وميض لمعان أطرافها المذهبة في وجه السماء المنذرة. وانجذبت نظرتي صوب تلك السماء المكفهرة،-التي أصبحت الآن رمادية تميل إلى الزرقة-

استطعت أن ألمحها بين الأوراق الصغيرة، ما زالت على استحياؤها في خضرتها التي ارتعشت مع أول هبة من العاصفة. واحدة فواحدة سكنت العصافير، وطفقت المربيات يسحبن الأطفال الذين ظلوا يلوحون بمجارفهم في الهواء. وسرعان ما تركت وحيداً أراقب السحب الداكنة وهي تجري فوق أسطح المنازل، وسط همهمة الرياح المهيبة. فجأة في تلك اللحظة التي تسبق أول اصطفاقة رعد، عندما يبدو كل شيء منصتاً

متربقاً لأول هزيم، خُطِفْتُ من نفسي حيث كانت، وألقي بي وسط زحام خفي. تدفقت على البال خواطر لا تحصى في رقة عنيفة كما يتكسر الموج على رمال الشاطيء.



Above: The pont Royal, Notre-Dame and the Institut, 1970
Below: The pont Alexandre III

من الأعلى الجسر الملكي، ونوتردام، والمعهد عام 1970 ، الأسفل: جسر الكسندر الثالث

ودخلت روح مدينة كاملة في حالة من الصياح، والتنهدات، وتجمعت من فوق رأسي قهقهات العاصفة، وتسارع خفقان قلبي في تناغم مع ذلك الفرح العظيم، المفعم بالتوتر والحذر. كان الأمر أشبه بمجاوبة صوت بعيد ينبعث من أزمان سحيقة لإرعاد السماء الرتيب. أصخت السمع، ساكناً، ثم اندلع خط من النار قاسماً السماء من أولها لآخرها، وعقب ذلك، في وسط تلك الضجة، انصب المطر منهمراً كالسياط على ظهر الحديقة العتيقة.

سمعتة بسرور، ذلك الصوت الغامض، الذي تدوزنت نغماته المكتومة بدقة على حزن الذكريات العتيقة، وعلى الفور نهضت من الأرض، وعدت إلى نفسي، ببركة العالم الهائلة تلك، التي نستشعرها جميعاً في وقت ما من حياتنا، أعذب رائحة في العالم وفي الوقت ذاته أشدها إنعاشاً، وبراءة وغموضاً وقدماً، أقربها إلى أصول كوكبنا، وأحدثها، إنها رائحة تؤرجح قلب الرجل بين أعظم فرح، وأقدس حزن، إنها رائحة الأرض الرطبة.

Paris

By: Julian Green

باريس

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

7

في كنيسة نوتردام

--

ثمة أيام تتحدث إلينا فيها الأشياء كما لو كنا تحت تأثير إلهام غير منتظر. بلغة ليس لها أن نفهم، تهتف إلينا برسالة، لا يتضح معناها إلا بعد فوات الأوان. كما لو أن، تلقي صورة أو رؤيا- ضرب من النبوة- دون فائدة، ومتى كان يُسمع لنبي؟

حوالي وقت الغسق، من يوم خميس العهد عام 1940، وجدت نفسي في نوتردام، كاتدرائية سيدتنا، أمام المذبح في وسط الممر الرئيسي، وقد عُرض عدد من آثار الكاتدرائية المتحجرة، من بينها: المسامير، إن كنت أذكر على وجه صحيح، وما اعتقدت أنه جزء من إكليل الشوك. أربعة أو خمسة أشخاص لا غير، يتأملون هذه الأشياء. وفوق رؤوسهم مصباح إلكتروني يلقي أشعته القاسية في الظلام الذي بدا يغزو صحن الكنيسة. وفي الجانب الآخر من المذبح الصغير المرتجل لمحت رجالاً يرتدون عباءات بيضاء. وعلى الرغم من غرابتهم الشديدة، لم يسترعوا انتباهي في البداية، لأن ما كنت أسمعه أدهشني أكثر. حول الآثار كانت هناك منطقة من الصمت المطبق الذي تكاد تحسه حساً، وهذا ما جعل تلك الأمتار الخمسة مكاناً لعزلة تفوق الوصف. ومع ذلك، في الطابق العلوي من الجناح الشمالي للكنيسة، كانت الضوضاء تملأ الأذان. وقد أزيل الزجاج الملون من النافذة الكبيرة الوردية اللون، واستبدل بقطعة واسعة من القماش المنسوج، تصطفق مع الرياح بصوت كالانفجارات رتيب، يشبه طلقات البنادق. كانت هذه آخر عواصف هذا الشتاء، كادت تمزق من شدتها القطعة القماشية الرمادية تمزيقاً.

يشي عويل العاصفة على نحو لا لبس فيه بغضب شديد، ويأس محبط، وبينما كنت أستمع إلى صخبها بما فيه من جمال مهيب، لاحظت أنها لم تذهب بالطمأنينة العميقة التي تحفّ المجموعة الصغيرة من المصلين. وبالمثل سترى بعض الأشجار تحني رؤوسها لصرخة مفاجئة، بينما على مسافة عشرة أو اثني عشر قدماً تحتها، تقف الشجيرات القصيرة بأوراقها وأزهارها هادئة دون أن يهتز لها غصن. يتكسر الصوت الهائل حول الأقبية، ويملأ صحن الكنيسة بقعة معركة انتهت باصطدامه بحاجز غير مرئي على بعد أقدام قليلة من الأرض، كما لو أنك تسمع في الوقت ذاته، حفيف ورقة ثقلب، وشجرة تُقتلع من جذورها، في مزج بين هتاف الحشود، وقعقة أسطول من الدبابات. كانت تلك هي اللحظة التي وجهت فيها بصري إلى الرجال المتشحة ملابسهم بالبياض، وقد جلسوا متقابلين، معتمرين تلك القلائس المشقوقة التي ذكرتني ألوانها بكنائس تورين الجميلة. ارتدى كل منهم صليباً مطرزاً على كتفه الأيمن، وشعرت أن بوسعي التعرف على الخشوع في ملامحهم التي لم تخل من حدة بادية. شردت بأفكاري مع فرسان القبر المقدس، عندما باغتتني فكرة أن هؤلاء الرجال والنساء قد جاءوا لطقس لم يعرفوا معناه، وأنهم في الحقيقة يقيمون الليل. صار الأمر كما لو أن الريح، والغسق الذي يللم أطرافه، والأعمدة، والأقواس والكاتدرائية بأسرها كانت تصرخ بتحذير شديد لنا جميعاً، ولكننا لم نسمعه. وخلال وقت قصير جداً غادرت المبنى، ولم أك أدرك وقتها أن خمس سنوات ستمر قبل أن أرى كنيسة نوتردام مرة أخرى.

ثم عدت إلى هناك، في أحد أيام شهر نوفمبر. سرت على كتفي قشعريرة برد، وتقدمت بين النور والعتمة كما لو كنت أسير وسط غابة. تكاد باريس تخلو من بقعة لا تسكنها ذكرياتي. عاودني هنا شعور الرهبة الذي كان يملكني بينما أدلف إلى الكنيسة العتيقة وأنا أنشبت بكف أُمي. كل طفل هو بربري صغير، ومثل بربري، كانت تلك الفخامة تأسر لبي. حتى اليوم، وكم أحب ذلك، كنت أخشى الوصول إلى الجناح الشمالي، نظرت إلى النافذة الوردية. ما زالت قطعة القماش الرمادية الكبيرة موجودة هناك، قلت لنفسِي، ولكن لا رياح ترفرف على هباتها هذه المرة. وسمعت بدلاً عن عويل العاصفة همهمات مطمئنة لقراءة الشرائع من المكتب. عندها تذكرت فرسان القبر المقدس، والنساء الجائيات أمام الرفات. كيف بدا كل ذلك بعيداً بالنسبة لي الآن، كيف صار السؤال غريباً، السؤال الذي طرحته على نفسي يومذاك: "من يحرسون ساهرين؟"

جلت بعيني في أرجاء الكنيسة. توقفت فجأة، وغصة في حلقي. لم أتوقع أن أرى ما رأيته، إلا أنني عرفت على الفور. كان يقف في الذراع الجنوبية من الجناح، صليب خشبي طويل، عارٍ، وغني في بساطته، كان مهدياً إلى من قضوا في بوخنفالد. كان هناك، ينتظر ويراقب كما تفعل الأشياء التي لا يعجزها الانتظار ولا المراقبة. وقفت قرب بعض الوقت، ولم ألتفت إلا لأتقني خطواتي وأعود لأنظر إليه مجدداً. كان الأمر كصرخة عظيمة من الألم والسخط، لا شك في أن العصور الوسطى لن تجد طريقة أخرى للتعبير عما لن تحيط به الكلمات، ولم يسعني إلا التفكير في أن أسئلتني التي طرحتها في شهر مارس من عام 1940، قد وجدت إجابتها في هذا اليوم من شهر ديسمبر عام 1945.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

8 درج ودرجات

من أقدم ما أذكر، أعتقد، أنني كنت أرى سلماً تتحدث عنه أُمي من حين لآخر. ولطالما تجمّدت رعباً مما تسرده علينا أُمي، شعور الرعب ذاته، لكن ظننت الراوية أنني لم أفهم لأنها كانت تتحدث باللغة الإنجليزية. لقد أمضت شبابها في السافانا، بولاية جورجيا، في منزل رائع على الطراز الاستعماري يشرف على مشهد لأشجار الجميز التي تظلل ميداناً كبيراً. في الولايات الجنوبية، وبعد غسق قصير العمر، قد تُسدل ستارة سوداء، يسبقها في أوج الصيف نقيق ضفادع الأشجار المرسل كغناء لا ينقطع. هل الظلام في هذا الجزء من العالم أشدّ منه في أي مكان آخر؟ خلته كذلك. كانت ستبدو بالقطع زاخرة بالتعاون الشريرة. عند الانتقال من غرفة الرسم إلى غرفة نومها (بعد الأصوات، والضحك، والرقص، لا يعجزني تخيل الصمت الذي تطارده تلك الأغنية الرائقة التي تتشكل كأنها صوتٌ يُنسج ممتداً من شروق الشمس إلى غروبها) كانت والدتي تستخدم درجاً صغيراً ضيقاً، ضيقاً للغاية بحيث لا يتسع لزوجين صعوده جنباً إلى جنب. وقالت إنها كانت تشعر دائماً بشخص ما يتبعها، ويهمس في أذنها. واعتادت أن تضيف في شيء من القلق، ليس على سبيل التوضيح، بل للإشارة إلى وجود صلة محتملة بين النتيجة والسبب: "كان المنزل في موقع سجن قديم، شُنق فيه عدد كبير من المجرمين."

استخلصت من هذه القصة الاستنتاجات المرعبة التي جعلتني أشعر بالقلق من كل درج في أي مكان- حتى ذلك الدرج الوديع الذي يؤدي إلى شقتنا في شارع دو باسي. الحقيقة أنني لم أشعر بالشجاعة إلا حيث ألقى زجاج النافذة الملون ضوءه على السجادة الحمراء، وحواجز الدرج النحاسية، في الزاوية المظلمة حيث تشكّل الدرجات دورة إلى الوراء، كنت أركض ومن خلفي جميع ضحايا التعذيب في ذلك السجن الأمريكي.

بمرور الوقت تبددت هذه المخاوف الطفولية، ولكن ما زال بعضها باقياً، وأعتقد حتى اليوم أنه حتى الدرج العادية جداً لا تخلو تماماً من الغموض في نظري. في نهاية المطاف، قد يُعد الدرج امتداداً للطريق، أو الشارع، المشحون بالمثل - بكلّ أفكار من يقتربون من وجهتهم. ألم تلاحظ قط كيف يبدو الناس مستغرقين في التفكير وهم يصعدون الدرج بين طابق وآخر؟ كثير من القرارات تتخذ، والأسئلة المقلقة تنتظر إجاباتها خلف الباب الذي يوشك أن يُفتح! هنا على الدرج، الوقت والمكان المناسبان لاتخاذ قرار، تلك اللحظة الأخيرة من التفكير قبل الغطس. نتيجة لذلك، يبدو أنه باقٍ، في بعض تلك الدرج اللولبية الكبيرة، بقايا أحلام صانتيها، وذكرى، كما كانت، من

التأملات التي اصطرع فيها الحب، والشهوة وأعباء الحياة في سبيل قلوب كل المجهولين الذين مروا من ذلك الطريق من قبل.

باريس هي مدينة الدُرج التي تتحدى الخيال. لا أعني القصور القديمة، التي تشبه مراقبيها المزهوة الخطابات الأنيقة حيث كل تشكّل كل علامة هبوط استراحة بين الدرجات. بل في خاطري تلك السلالم البرجوازية الزاخرة بالمؤامرات والمشاحنات والدوافع الخفية التي لا يكاد الروائي يمس منها الدرازين حتى، دون أن تهتمس شخصية ما في أذنه، وتمنحه لمحة من من وجه ما. أعرف درجاً لوليباً بعينه في مبنى المعبد، حيث تقفز فكرة المطاردة على الذهن على نحو لا يُقاوم، وآخر، ضيق ومتعرج، يجعلك تتساءل عما إذا كان بوسع تابوت أن يمر عليه دون أن يصطدم بالجدران، وماهي المناورات المتأنية التي يتعين القيام بها لتجنب إزعاج الراقد في الصندوق الأسود الطويل.

توقفت في المرات العديدة التي سرت فيها عبر ممر منحدر مظلم بالقرب من البورصة، عند سفح درج تتلاشى درجاته الحلزونية الفخمة في لامبالاة متعجرفة، وهي تصعد لتغيب في الظلام. وعلى المقبض النحاسي، ودرازين خشب البلوط، والدواسات التي أضفى عليها التراب لوناً رمادياً أمام عيني زينة من جمالٍ خياليّ ظلّ يتبعني لوقت طويل بعد أن عدت إلى الطريق. وقد أتصور أشخاصاً رائعين من تلك الحياة- مع جراءة في خيال الكاتب العظيم- الذي عبر تلك البئر المظلمة صعوداً وهبوطاً مستمتعاً- على ما يبدو- باستعراض مواهبه، والسخرية من مقلديه... إنه درج يلائم لوتريامونت⁶.

لكن إذا كانت هذه السلالم الداخلية تثير فضول المرء، فما تبثه عتبات الدرج الحجرية في قلب المتسكع من كآبة مهدئة تدعوه إلى ضفاف نهر السين للتجوال، متأملاً حد التيه في مياهه القاتمة. إنّ السد السفليّ مكان ممتاز لاصطحاب أحلامك في نزهة على الأقدام، ملقياً خلفك نظرات الخيبة الفادحة تلك، والتي تشي بطول رحلتك. في جاذبيته الغريبة شيء يقبض بقلبه السري على ذلك الرجل الذي يستسلم للتأمل السوّاح، ويغذي قلبه على الحسرة، وبينما كان يصعد الدرج مرة أخرى، يشعر كأنّه دلف إلى مستودع للذكريات، وأصبح أكثر ثراءً بحزنه الجديد.

وربما كان لشخص آخر ولع بمجموعة العتبات الكسلى التي تنتشبت بجنبات هضبة مونمارتر، والتي بليت درجاتها من كثرة الخطوات التي عبرتها، أعلم أنني لن أتجاوز مشهد هدم الدرج المبهج خلف مقبرة باسي، والذي يهبط في ثبات حتى تروكاديرو.

⁶ الكونت لوتريامونت: Comte de Lautremont هو الاسم المستعار للشاعر الكاتب الفرنسي المولود في أورغواي إيزيدور لوسيان دوكاس، مؤلف الرواية الشعرية السيرالية الشهيرة أغنيات المالدورو.

الطريق الواسع الرتيب الذي انتهى إليه حال الدرج، والذي يبدو كما لو أنه يتجلى كدبابة، ليس تعويضاً عن اختفاء قطعة من باريس، بل مدعاة لتذكر تلك الأحجار العتيقة، وأحسبني تخيلتها بإخلاص شديد بفضل ذاكرتي: من جانب كان ثمة جدار عاري، مرتفع ومظلم تتوجه أشجار السرو الفاتنة، وفي الجانب الآخر تغوص العين بين الأشجار لتستقر في غابة من الخضرة. وفي الليل خيال شخص ساهر يسير، يعجزه النوم، ويتناهى للسمع جرس غير متناغم لدقات ساعة في بيت مجاور. كان الجميع، الأحياء منهم والأموات نياماً، والصمت المخيم على المكان يتسم بالعمق والبساطة.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

9
كنيسة فال دو غراس

كنت أسير في أمسية أخرى على مقربة من شارع دو فوياننتين، وكان اسم فال دو غرس-"وادي النعمة"- ما يزال حياً في ذهني. عندما تسير في شارع سان جاك إلى الأعلى، يضيق في بقعة منه ويصبح ذلك الشارع الريفي الذي يتجلى عند الليالي الصافية. وإن كانت الظلال واضحة، والقمر منيراً ساطعاً، تأتي لحظة يتوقف فيها المتسكع فيها الأكثر علماً بما يتعلق بجميع أسرار مدينته، محدّقاً في صمت. تأنف باريس كما ذكرت سابقاً تسليم نفسها لمن هم في عجلة من أمرهم؛ إنها ملك الحالمين، وأولئك القادرين على تسليّة أنفسهم في شوارعها دونما اعتبار للوقت، عندما تتطلب أعمالهم العاجلة تواجدهم في مكان آخر، وهكذا فإن مكافأتهم هي رؤية ما لن يراه الغير أبداً. وتتمتع باريس بمزية أخرى، تتمثل في الكشف عن نفسها أفضل ليلاً عنها نهاراً. يبدو أنها تنتظر حتى ينام الجميع. وفي ضوء النهار الكامل، تتوارى، مثل أي عاصمة عربية أخرى ببعض المحسنات البلاغية البديعة: تصبح جادة بعينها جميلة طويلة، تقود بحزم إلى استنتاج، لم يسعك أثناء رؤيته يتقدم نحوك تصديق أنه ممكن. وتكون الساحة مكاناً عاماً يُبعث للحياة من جديد ببراعة عبقرية لا تخفى على أحد. ومع ذلك، تختلف باريس في الظلام تماماً، وإن تحدثت، فإلى نفسها تتلو كلماتها الغامضة في

غلالة من الحزن. أنا لا أدعي أنني أسمع منها الكثير، لكني أعلم أنك عندما تصعد إلى شارع سان جاك، وتدخل الميدان الصغير الذي يشكّل ساحة أمام كنيسة فال دو غراس، فإنك ستضطر حتماً للوقوف إن كان القمر يسكب أشعته أسفل قبة المبنى مباشرة. رأيت ذلك في ليلة سابقة، كما لو عبر شاشة سوداء ضخمة، واجهة مهجورة في الظلام بأقواسها، وأعمدتها وزينة أفاريزها المحتشدة، وكل الزخرفة المذهلة عراقة طرازها، وخلف هذه القطعة البديعة معجزة ما تتجلى: اختفت القبة في الضوء الذي بدا وكأنه يغيّر عنصرها، كأنها تحولت إلى زجاج شفاف، وتكاد أنت تتوقع رؤية النجوم تلمع عبر ذاك المعمار الذي يشبه الأحلام.

لطالما اعتقدت أنه بمراقبة الأشياء بدأب وعن كثب، يسعك في النهاية أن تنتزع منها بعض أسرارها، وتجعلها تنطق بما عزمت على كتمانها عن الغير، وحتى الحصاة العادية لا يخلو جوفها من غموض: وعندما لا تبوح المادة فهي كتوم. جامدة في مكانها من أثر جمال تلك القبة الرقيقة. كنت أنظر إليها وهي تتبدد في أعماق السماء الصافية ثم فجأة أخذت طابعاً يكاد في روعته أن يكون شرقياً. نمت بعد ذلك، حتى ملأت قبو سماء الليل بكامله، وانغمست بغتة في سواد داكن ليس ببعيد من البهو الروماني. يستدعي هذا التسلسل في المشاهد إلى الأذهان بالحاح خاطر عن موسيقى لا تُدرك إلا بالعقل.

لشد ما تأثرت بكل ما حُببت به، وذلك بفضل القليل من الضياء، خطر في الحال تقريباً ما كنت أخاله زائلاً لا محالة، وأنّ ليس للكنايس الأخرى سوى الجمال حصن يدفع عنها الخطر، للأسف، انهارت في تلك الليلة تحت القنابل، ربما في ليلة صافية كهذه، سيهشّم صاروخ البربرية العبقرية هذه القبة كقشرة بيض، وها هنا، أفصحت الكنيسة بهدوء عن كلمات، تنبئنا بشيء عن سر المباني العتيقة: " كلما ازداد الخطر الذي يتهددني سوءاً ازددت جمالاً".

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

10
بشاعة المدرسة

من سر المدن الكبرى أن تيسر النزاهات التي يستعصي سحرها على التفسير في كثير من الأوقات. لا تقل لي إنّ رضاي ينبع من جمال المنازل، أو رحابة الحدائق والأفنية، وعراقة الحجارة: ثمة شيء آخر لا يسع الكلمات معه إلا الهروب، خفقة قلب خاصة عند رؤية شجرة قرب سقف ما، أو في شارع مشمس، البرد المفاجيء عند ممر مظلم تحت الأجنحة المترفة لقصر سابق. لذا فإنّ أي ذريعة تفي بالغرض عندما تنتابني الرغبة في التجول في المدينة الريفية الرائعة التي تمتد من سور قصر لوكسمبورغ حتى جسر الآباء القديسين، ويطل عليها برج جرس كنيسة القديس جيرمان دي بري، وأبراج كنيسة سان سوليبس. وبعبارة أخرى أعيد ما قاله العجوز صمويل جونسون عن لندن، عندما يعتري الرجل الكلل من شوارع مدينته، فقد سئم الحياة.

ومع ذلك، ولبضعة أشهر، لم أسر بذاك الطريق دون أن أشعر بشيء من عدم الراحة.

صار من المبتذل في هذه الأيام القول بأنّه وبعد سنوات عدة من الخراب، يُعد صمود باريس ضرباً من المعجزات. ولكن إن نجا جمال باريس من الحروب، فكم غريب هو أنّه لم يفعل شيئاً أمام فؤوس الباريسيّين أنفسهم عندما يقررون هدم شيء ما، أو في

مواجهة تقلبات مهندسيهم المعماريين عندما يُترك لهم الحبل على الغارب! لا يعنيني من بنى الموبقة الغربية التي تُرى في ركن شارع الآباء القديسين، وشارع جاكوب، ولا ما تفعل هناك، لأنّه علينا- لنكون منصفين- ترك بشاعتها تحكي عنها في بلاغة لا تحتاج إلى تعليق. إنّها في الحقيقة تقف في قلب أحد أجمل الأحياء، في مدينة تزهو بكونها أجمل مدن العالم، وهذا أمر لعمرى شائن.

إن مدرسة الطب الجديدة ضخمة جداً، وكئيبة تماماً مثل جميع التحصينات المقامة أثناء الحرب، وتستحق أن ينقش فوق بابها- بذات السخرية التي استهدفت عائلة بربريني في روما- عبارة: " ما عجز البرابرة عن إنهاءه، أنجزه الباريسيون."

Paris
By: Julian Green
باريس

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

11

صومعة آل بيت

--

على مسافة دقائق قليلة من فندق لا فيل توجد كنيسة لوثرية، ملحق بها مبنى صغير لطيف يبدو أنه يخفي بين جدرانه ما يخفي. كثيراً ما نظرت إلى واجهة الكنيسة التي

تتسم ببساطة عجيبة، وفي يوم آخر، مُقراً بذنبي، دفعت باب المنزل المجاور لأول مرة.

تسمرت من هول المفاجأة في مكاني. بعدها، أخذت خطوات قليلة إلى الأمام، سرت خارج القرن العشرين ودخلت في القرن الخامس عشر. وبسحر تلك الازدواجية الفاتنة أخرجت باريس من جعبتها، كما كانت تفعل دائماً، صومعةً قوطيةً صغيرةً. كنت أجوب أنحاءها في سعادة غامرة. كان في الحقيقة يفوق بالكاد في حجمه قاعة رقص. ولكن لم ينقص عنها ولا قوساً واحداً، وكنت لأسير حوله عدة مرات لولا وجود عقبة عنيدة، كانت تلك العقبة هي الكوخ المخصص لراعي الكنيسة. وربما كان المكتب الوحيد في باريس حيث تدير المشرفة منزلاً تحت أقبية تعود لحكم الملك تشارلز السابع. وفوق ذلك، عندما يتسنى للمشرفة نفسها، التي أحسدها في هذه اللحظة، رفع عينيها من المجلة التي تتصفحها، وإجالتها في الأعمدة القوطية واحداً بعد الآخر. هل تلاحظ وجود هذه الأعمدة؟ إنها تعي ذلك، بلا شك، لكن هل مرت عليها لحظة رأتها فيها؟ لدي هذه الميزة عليها، إنني أنظر إلى هذه الأحجار للمرة الأولى، بينما هي تجلس أمامها طوال اليوم، لكنها لا تتحدث إليها أبداً. هذه هي الأعمدة الراسخة الإخلاص التي تحفظ الموعد المضروب بينهما كل يوم، ثم تظل في مكانها حتى تغلق هي عينيها، كما لو أنها تقول ماذا تفعل بعد ذلك، ليس ثمة طريقة لمعرفة هذا على وجه التحديد، ولكنني أتساءل ما إذا كانت المرأة تنام مثلما ننام: هل تشهد موكب الأردية السود ماراً خلال جدران غرفة نومها؟ هل تغطي بتياب نومها أذنيها خائفة من همهمات الترانيم؟ لا أعتقد ذلك، مع وضع كل شيء في الاعتبار. واحد من أيام شهر أبريل الرائعة تلك، عندما تفوح من باريس أريج غبار الصيف الأول، وقفت للحظة في أحد أركان الصومعة وأنا أرتمي قلنسوة خيالية، وتحت ملابس الخضراء قلب نابض من العصور الوسطى، لأنني ولأسباب عدة أشعر بالحنين لفترة أو من فيها بأن الإنسان ما زال يحمل في أعماق أجزاء كيانه سلاماً فقدناه، والمكان الذي أتحدث عنه هو واحد من تلك الأماكن حيث يبدو السلام الداخلي طبيعياً وتلقائياً كما في صفحات توما الكيمبسي⁷.

إذن ها هي، الصومعة الصغيرة التي تمنحنا سلامها العجيب، ما بها من صمت القرن الخامس عشر، تقدم لنا أروقئها صورةً واضحةً جداً لروح تنزوي على نفسها وتتأمل بطريقة لم نعد نذكر كيف نتبعها. أنا أصل إلى هناك في الحقيقة وأذكر نفسي بنقطة البداية، باستعادة ذكرى هذه الأطلال التي تنتمي إلى باريس العصور الوسطى. اقتربت الظهيرة من نهايتها، وكان في تلك الجدران، وفي ظل هذه الأعمدة الضخمة، كنز صغير يتم انتزاعه من كل ساعة من ساعات النهار، الحرمان الكامل منه قد يقتل أفضل ما نحمله في دواخلنا، كان هناك صمت، صمت لم يחדشه بل زاده الصوت الكريستالي المستمر لقطرات المياه التي تصب في حوض ما. يقف الحوض بجانب شجيرة تحمل

⁷توما الكيمبسي ; عالم عقيدة، وكاتب، وفيلسوف، وكاهن كاثوليكي، وشاعر اشتهر بكتابه الاقتداء بالمسيح.

أوراقها الصغيرة، جميعها نضرة وشفافة، تواجه السماء. وعلى عتبة النافذة التي تلقي من خلالها الحارسة باتجاهي نظرةً عابرةً بين الحين والآخر، علبةً بيضاء ذات بقع سوداء، وُضع غطاؤها مائلاً على هيئة وجه قاتل، ظل يراقب، بصبر شديد، حمامة باللونين الرمادي والبنفسجي، كانت تهدل في هدوء وبراعة بين الغصون.

Paris
By: Julian Green
باريس

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

12

قصر التروكاڨيرو يتحدث

إن كان قصر التروكاڨيرو القديم قد هُدم بدون إصدار قرار خاص بذلك، فعلينا تقبل أن ذلك العملاق قد أطاحت به سلطة الاحتقار العالمي وحدها، وأن عقول عدة ملايين من البشر بوسعها أن تعادل في أهميتها توقيع وزير. بلا شك صفت لأولى ضربات المعول التي وجهها العمال هزيلو الأجسام، ورحت بانهيـار تلك الحواجز الصارخة وجميع الفظائع المغاربية التي عكّرت وجه الأفق في حي شايو. كان ذاك عندما حدثني قصر التروكاڨيرو الحقيقي.

"حالي الآن، [أخبرني]، وما الفرق بيني وبين معظم الأطلال الأكثر عظمة في التاريخ؟ هل بدا معبدٌ بعلٍ، في ليلة غاب عنها القمر، أشدَّ عتمة، أو شرّاً بعد أن هدم رجال خشايارشا المتوحشون أعمدته؟ كن صادقاً الآن. أنا لا أختلف عن معبود الفلسطينيين السمكة⁸، بعد غضبة البطل اليهودي، وينبغي أن يكون بمعبد أورشليم شبه بي، ولكن على درجة أقل، عندما أسلمه السيد الخالد لغضب السادة الفانين. اعترف، لم ير تيطس شيئاً يختلف عما تراه الآن، جدران عريضة مذعورة، وأعمدة تتألم، ومراقٍ تصعد إلى الخواء، وحجارة تصطرع في سكون، وذلك الذعر الصامت للأشياء التي نعي أنها تعرضت للضرب. أباك عمي حتى أنكرت بهائي؟

كنت أنت من قتلني، عندما قيل كل شيء وقُضي الأمر. نعم كنت أنت ومعك كثرة من الأغبياء. أنا أفسح مجالاً لخلفي الرهيب، الذي سيكون بسيطاً أبيض اللون مثل كتلة من السكر. ستفتقد حينها قطع القرميد خاصتي، وزخارفي وزينتي المبتذلة، ومناراتي. وفي النهاية ستندكر تلك الجوائز التي أقيمت حفلاتها في قاعاتي، وهالاتي الجصّية المذهبة، وواحات أشجار النخيل، والأساتذة، والخطب التي تردد صدى كلماتها القوية كطلقات الرصاص. وبينما تسمع ما تبقى مني يتداعى، ستقول لنفسك، أيها الرجل الهزيل، إنَّ التهم قد صيغت بإحكام، ومثل قصر التروكاڨيرو المتهم، هاهي طفولتك تنهار.

⁸ يشير إلى الإله دجن، الذي يُرسم بنصف سمكة.

في هذه الأثناء يقدم لنا الليل، سيد التعميم الرائع، نسخة من التروكاڨيرو لن ينساها الكثيرون. لطالما افنتنت بما قد تفعله سماء باريس بقليل من الضباب، والدرجة المناسبة من الظلمة. ثمة وقت أثناء غسق ليلة شتوية عندما يبدو أنّ المدينة قد استسلمت لهراء فائن من عمل ساحر، يبيعنا الوهم مقابل الحقيقة، في محاولة لخلق سوء تفاهم هائل وسحر في عقل المتفرج الجوّال. وجدنتي ليلة أمس قبالة كتلة هائلة من الظل حيث توقعت عيني رؤية طلل غير ذي بال.

كانت الأبراج الحاسرة ملفوفة بغلالة من الضباب الرقيق، تلقي عليها أضواء المدينة لوناً وردياً مزعجاً، وهج نهاية العالم الناري الذي يغمر جميع المدن الكبرى. الجزء العلوي من الصرح مفتوح على اتساعه، كفوهة بركان، ونهر واسع من الأنقاض ينبثق من القاعة الكبرى. زال كل ابتذال على أية حال، بفضل سحر الليل، وما كان محض مبنى مهدم نهاراً، اكتسى الآن مزاجاً مسرحياً، وإن جاز التعبير، أبهة النكبات العظمى....يخيّل لي أنّ قصر التويلري المحترق بدا في تلك الصورة حالما ذهب حرّ رماده.

Paris By: Julian Green

باريس

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

13

المتاحف و الشوارع والوجوه

--

في متحف الإنسان، كلي بهجة لرؤية نامبا من جديد، ربة الأمومة. منقار الببغاء خاصتها والقطعة المربعة الصغيرة من القماش التي تتدلى منه، وعباءة القش الضخمة تضفي عليها مظهراً مرعباً. لقد خلّتها نُقلت بعيداً في انتصار على صوت نشيد لا مارسييز⁹، أو الراية ذات النجوم اللامعة¹⁰، التي قد تجعلها تبدو أكثر غرابة حتى. كما تفحصت الزي الجميل الذي يُرتدى في مكانٍ أو آخر لحفلات الختان. وعلى البعد كان

⁹ النشيد الوطني الفرنسي.
¹⁰ النشيد الوطني للولايات المتحدة.

ثمة طبل أوبانغي بديع، قطعتان كبيرتان مسطحتان من الخشب مثبتتان في الأعلى وفوقهما رأس جاموس غاية في الرقة به قرنان مفرطا الدقة مذهلا الانتشاء. ومن النافذة يبدو برج إيفل فويق أشجار قصر التروكاڨيرو مختلفاً على نحو ما.

من غرفة كلها نوافذ، تقع في الطابق العلوي لصحيفة مسائية كبرى في شارع اللوفر حيث كنت أرتاح للحظة، اكتشفت أروع منظر عرفته لأسقف باريس القديمة: شارع مونتورغاي، وشارع أبو قير، وشارع كليري... كان المطر يهطل بغزارة، ويتبدد الضوء وسط زخات المطر الفضية المنهمرة. لَكم من الزمن ستظل جميع منازل القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر المكسوة بالبلاط البني هنا؟

في متحف الفنون والحرف. قاعة ضخمة تزخر بالآلات التي تفوح منها رائحة الشحم. وفي مكان آخر منه غرفتان ممتلئتان بالساعات والمنظّمات، والأخيرة كونها مجرد ساعات بلا آليات طرق. وقد جمعت بين صنوف الجمال جميعها، من القرن السابع عشر، إلى 1900، تأريخ إحدى القطع الرائعة التي اشتهرت كساعة غامضة. وهي مكونة من تمثال مذهّب، منحوت بدقة فائقة، لامرأة تحمل خيطاً من الزجاج بطرفه نقطة ماء، وبالطبع، تتأرجح خرزة الزجاج يمنة ويسرة. وفي الثالثة والنصف شرعت جميع الساعات في الرنين ولكن في غير اتساق. كنا وحدنا في تلك المعارض الطويلة، باستثناء أحد الحراس نائم على مقعد، كانت النغمات الصغيرة مذهلة النقاء، تكسر الصمت هنا وهنا، وفي كل مكان، فتترك أثراً مميزاً يكاد يكون غريباً. كان مثل أن تكون في واحدة من حكايات هوفمان. ضوء الشمس على الأرضيات الخشبية، ينقضي الوقت إلا أنه ما يزال حاضراً في وقع جميع الرنينات الدقيقة المتنافرة.

نهر السين في فيضانه، بلونه الأخضر الرمادي، ثقيل وهائل، يغطي كلتا الضفتين، وتبدو أقواس الجسور كما لو أنها قد انبسطت. النهر متجبرّ منيع. وكنت أراه جميلاً في مثل تلك الأوقات، ملؤه غضب، غصب عارم. تحوّل السماء الرمادية القائمة باريس إلى البياض التام. ونوتردام في روعة يافعة.

شاهدت في شارع بوليفار دي كليشييه شيخاً يقف تحت زخات المطر، وجردين أبيضين مُدرّبين، واثنين من كلاب صيد الثعالب ترمش أعينهما من الإنهاك. ركض الجرذان صعوداً وهبوطاً على ذراعي الرجل في استعداد استثنائي، وصبر يتجاوز الحدود. جلس الكلبان اللذان اعتمرا قبعتين تيروليتين، وطفقا يتسولا بقدر ما يتطلب الأمر، ولكن لم تخل نظرتهما من بؤس الجوع والبرد والنّصب، بالإضافة إلى وعيهما بمدى سخافة منظرهما. بجانب صبي صغير وقف يمعن النظر في الحيوانات. وبعد بضع دقائق أخرج من جيبه محفظة كبيرة بالية وبإيماءة حوت كل طيبة الناس العاديين، ألقى بقطع قليلة من العملات المعدنية في القسعة.

كانت الأكشاك بين شارعي كليشييه وبيكال قد تهدمت تحت قطرات المطر الدقيقة المتواصلة. من بين جميع المدن الكبيرة التي رأيتها، أعتقد أن باريس واحدة من أشدها حزناً، على الرغم مما اشتهرت به من سرور أورثتها إياه حقبة سعيدة. يطوّف الفقر

والمرض ليل نهار في شوارع مونتمارتر الحزينة التي تتلأأ كجنة من المتعة البريئة في عيني السائح.

في حافلة تهبط على شارع فرانكلين. والنهار قد انتصف، عامل شاب سار نحو نافذة في الطابق الأرضي كانت مزينة بعلم فرنسي، على الأرجح احتفاءً باليوم الرابع عشر من شهر يولييه. كسر العصا على ركبتيه، وهو ممسك بالعلم، ومزق القماش، ثم رمى بالقطع في المجرى، وذهب في هدوء إلى حال سبيله. كان ليفعل الأمر ذاته بغض النظر عما كان عليه العلم، بتلك النزعة المتمردة التي تكمن في قلب كل باريسيّ

باريس في غلالة رقيقة من الضباب عند هبوط الليل، انعكست الأضواء على الماء، واتسحت كنيسة نوتردام بالبياض التام وراء الجسور. لا يمكن تصور المزيد من المناظر الساحرة الآن.

واقفاً عند تقاطع الصليب الأحمر، أنظر إلى شارع الشرش-ميدي الذي دائماً ما كنت أرى فيه شيئاً من السحر. الوقت: الخامسة مساءً. واجهات المنازل تتناثر بالأضواء من الأعلى إلى الأسفل. قصدت أن أقول، كما لو أنّ الشمس قد سكبت دلوّاً كبيراً من الضوء على هذه المساكن القديمة، فتركتها وهو يقطر منها، كان رائعاً، وفي الوقت ذاته، لا يسعك أن تراه بدون الشعور بحزن غامر، الحزن الذي فاءت به الشمس.

على مقعد في جادة سان جيرمين، ليس بعيداً من شارع باك، بالقرب من إحدى الوزارات، رجلٌ مسنّ يرتدي سترة قطنية، وبنطالاً يبدوان كأنهما مصنوعان بالكامل من رقع بلا لون مخاطة معاً، على نحو يدفعك للتساؤل عما تبقى من السترة والبنطال الأصليين بعد إصلاحهما. يكاد الأمر يصبح مسألة فلسفية جدية باهتمام واحد من باحثي العصور الوسطى، هل كانت هي البزة ذاتها أم واحدة غيرها، وفي أي لحظة على وجه التحديد أصبحت واحدة مختلفة؟ على كل حال كان الرجل موضوع المسألة ذا لحية بيضاء تحيط بوجه أحمر متسخ للغاية. وقدرت له من العمر سبعين عاماً. وعلى المقعد المجاور له ساعة تنبيه كبيرة الحجم، أمامه دحرجة تبدو كأنّها قد نجت من زلزال، ولكنها ما زالت على الأقل تحتفظ بأربعة دواليب، وفيها ما يشبه المهد، يرقد نائماً كلب أبيض متسخ ذو بقع صفراء، في هدوء لا يوصف وسط ضجيج الشارع الصاخب.

غطى باريس هذا المساء ضباب خفيف، وعكست أشجار الكستناء من تلقاء نفسها ضوء مصابيح الشارع، فصارت وكأن عليها ما يشبه الفوانيس اليابانية الكبيرة.

في البناية رقم 22، شارع ليشود، ليس بعيداً عن كنيسة سان جيرمين دي برييه، ثمة باب موارب، يكشف عند فتحه على مصراعيه، عن غرفة درج جميلة من القرن الثامن عشر، معتمة وغامضة، فيها إبريق من البيوتر في طاقة مجوفة من الجدار في بداية الطابق الأول. حدّقت لفترة طويلة في الضوء الذي تعكسه هذه الدرجات العتيقة، عاجزاً عن المضي قدماً...

عقب ذاك مباشرة، معمل ديلاكروا في ساحة فيرستمبرغ الصغيرة. الحديقة الغناء الغارقة التي طابت مجلساً، تظللها الأشجار، في صمت لا يشقه سوى نسمة في هذا اليوم الجميل من فصل الصيف، لا يفصله عن جادة سان جيرمين التي تصمّ ضجتها الأذان سوى بضع ياردات. في كل مكان حولنا، منازل قديمة بنوافذ مفتوحة، وتلك النوافذ سوداء تماماً. لوحات مائية لديلاكروا، هويت، وريزنر، وهوغو، أحلام في جميع الاتجاهات. واحة هذا القرن التي تخلو بشدة من الشعر يا للعار. سماء زرقاء شاحبة فوق رؤوسنا، ذات سحب تسبح فيها مثل نفثات البخار.

في وقت متأخر من ظهر أحد الأيام، دخلت منزل بيرون لأرى معرض النحت الإيطالي المعاصر. في كنيسة صغيرة مربعة تنتمي إلى الحقبة القوطية الحديثة، أضفى أحد أساقفة المانزو طابعاً استثنائياً من البساطة المهيبة، وقف منتصب القامة ثابتاً في غفارته الكبيرة التي برزت منها إحدى كفيه. وبعض التفاصيل الغريبة هنا وهناك، بخلاف هذا الجمهور الساكن في حماس. كانت هناك لوحة للكاردينال ليركارو، وهذه هي الكنيسة... في الحديقة خارجاً، يرقد رجلٌ مشنوق بطوله الطبيعي على السطح، ويداه وراء ظهره، يدان كانتا لترسلا مايكلو أنجلو إلى عالم الأحلام. ضخم، محزن، الراس لطيف ومفعم بالشباب.... فجأة بدأ المطر يهطل بغزارة، وركضنا، أنا وإيريك، تحت أشجار الكستناء على طول هذه الدروب المستقيمة. على المروج نصبت المنحوتات الحديثة، بعضها كان شائهاً، يراقبنا، لامعاً مثل حيوانات من حقبة سحيقة على وشك الوثوب. وسماء ملبدة، ويشكل جميع ذلك سمة حالمة جداً. شعرت بأننا في الصين قبل وقت طويل.

ارتفع الضباب من سطح الماء مثل البخار، نهر السين يدخن، بقعة بيضاء تظهر في أعماق السماء السوداء، بدا الأمر كما لو أنّ ليلة خريفية مظلمة تنسحب أمام ليلة غرائبية، شحوبها يضاهي سواد الأخرى، ولكنه لا يُخترق. وشيئاً فشيئاً ابتلعت الجسور، والمصابيح الواقفة واحداً بعد الآخر. للتو تلاشت الضفة البعيدة. وقنطرة باسي، بمصابيحها الملونة، بدت تتراجع تحت اندفاع قوة لا تقاوم؛ اختفى الظل الأسود أولاً، تاركاً خلفه خطأً قرمزيّاً طويلاً يتبدد في بطاء.

إلى شارع دي بارادي هذا الصباح لشراء كؤوس نبيذ. تالأت المتاجر واحداً بعد الآخر بالكريستال. سان لويس، وعلامات تجارية أخرى. الشارع الضيق جميل، وعامر، ثم الأجل منه حتى شارع تريفيز بساحته، وناقورته الجميلة وأشجاره الصغيرة، كيف بدا لي كل ذلك مرهف الحسن رقيقه، ولكن ماذا سيبقى منه بعد عشر سنوات من الزمن؟ السماء المبلدة، وزخات المطر، هذه هي باريس الصبا.

في متحف الفنون والحرف. في غرف كبيرة تكاد تكون فارغة، بينما ترن مئات الساعات، أخبرنا المرشد قصصاً مذهلة عن جو المتحف الذي يميل إلى الغرابة في أوقات معينة، وقد يصبح مقلقاً في منتصف الليل إن كنت وحدك. أولاً هناك صوت نوابض الساعات تستعد لتعلن دقائقها الساعة الثانية عشرة، تليها تلك الموجة المعقدة من النغمات الصغيرة وسط الصمت.

هناك ركن واحد بعينه في إحدى الغرف حيث تسمع خطى قدمين تقترب منك إذا كنت بمفردك. لا تزال هذه الظاهرة- التي يمكن تبريرها بالتلاعب في ألواح الأرضية- صادمة للسبب ذاته. وثمة وهم عجيب آخر لنار تشتعل، في الحقيقة هو انعكاس للافتات النيون التي تطل عبر الشارع، ويقع ضوءها على صناديق المتحف الزجاجية. تسير إلى الأمام وتجد شخصاً يسير أمامك، هو في الحقيقة أنت- خدعة أخرى لانعكاس الضوء على صناديق الزجاج. لا شيء من ذلك على الإطلاق: هذا المتحف، الذي كان ليدخل السرور على قلب هوفمان، وريلكه، يحتوي على غرفة عازلة للصوت، استخدمت للتحقق من دقة آليات معينة. يطبق فيها الصمت تماماً، الصمت الذي لا نحتمله لأكثر من لحظة. صمتنا، على غرار الحديث، هو ببساطة توقف الضجيج، ولكن في تلك الغرفة يخيم صمت عميق لا يستطيع أيّ كان تحمله لأكثر من ثلاثين ثانية أو نحوها، لأنك لن تسمع فيه التمتمة التي هي دقات قلبك، بل نقرات مكبرة لعظامك في كل حركة. وهذا في وسط باريس.

زرت لتوي متحف كارنفاليه لرؤية الغرف في الطابق السفلي حيث تُعرض باريس عبر العصور. لقد جئت بانطباع سيء: لا شيء سوى صفوف من المنازل المحترقة، والأشخاص المصفوفين إلى الجدران لإعدامهم بالرصاص، والمتارس، وقذائف المدافع تهدم القصور، والغوغاء، والثورات، والفوضى العامة. لقد أعجبت بالنموذج المصغر لكنيسة سان سولبيس الرائع الذي صنعه شالغرين، القصر الملكي المقدد في مجسم مصغرٍ بحدائقه، وجميع معارضه. يراودك عندما تنظر إلى كل هذا من الأعلى، منحنيّاً عليه، شعور كالعملاق، جيلفر معاصر. الأسئلة التي قد تطرأ على ذهنك، حتى المعلمين، فقط بالتجول عبر تاريخ مدينتنا (ما حدث للمومياوات المجلوبة من مصر، حيث كانت مدفونة، وما يوجد تحت العمود الذي ترحل إليه روح الباستيل أبداً، إلى أين حولوا مجرى بحيرة شبح الأوبرا تحت الأرض، من قدم نفسه نموذجاً لتمثال بيبير دي ويسانت، الذي عاش في قلعة الضباب ؟)، ولكنك قد تكون دائماً على ثقة أنك ستجد في باريس شخصاً يغرم سراً بمدينته- لديه جميع الإجابات.

في متحف فيكتور هوغو. في الغرفة ذات السرير رباعي الألواح، في صندوق زجاجي عند قدم السرير، ثمة قناع موت العجوز المجنون، تكمله لحية ربما كانت من عمل بيرنيني. رأيت، وأنا أنحني على الصندوق من فوق، الوجه الفاتن لرجل شاب ذي شعر أسود وخدود بنية اللون. كان هوغو ليعشق التباين. في الخارج في ساحة فوج كانوا يقطعون أشجار الدردار. وبدا كما لو أنهم قد أزالوا آثار آلاف من اللقاءات، بعضها رقيق، وبعضها قاس- لأنّ الناس كانوا هنا ليلتقوا بالأسلحة بقدر خروجهم للقاء بعضهم بالقصائد الغزلية.

سرت حول حي البورصة في تلك الشوارع الجميلة العتيقة، الكنيية بعض الشيء، الشريرة نوعاً ما، وأنا أفكر في شينير، لوترمونت، وموليير، والكثير من حلقات

الإرهاب، أو الحصار. وأمام عيني تبدو باريس جميلة على نحو خاص تحت سماء رمادية. ثمة شيء فيها يبعث على الكآبة عندما تعلوها السماء شديدة الزرقة، وتحولها إلى اللون الأسود.

وأنا أحاول تجنب المرور بسوق ليال. الذي كان يهدم، والذي أُخبرت، أن الجرذان هي الأخرى، تغادره الآن إلى سوق رونجي، أذهب لأنادي واحداً من كهنة كنيسة سان اوستاش. في أسفل شارع كول دي ساك، تسد كنيسة سان اوستاش الطريق، حيث ثمة باب يفضي إلى غرفة درج حلزونية من عصر النهضة. نصعد، ونصعد، ونجتاز ممراً، ونخرج عند رواق ثلاثي العقود. هناك بدأت ركبتاي ترتعشا. كنا على ارتفاع 135 متراً فوق أرضية الكنيسة. رأيت المقاعد تبدو مثل طوابع البريد. ويقطع شعاع من الشمس لا نهاية له الكنيسة إلى نصفين، ماراً عبر الأعمدة كما يمر عبر أشجار السيكونيا في إحدى غابات أمريكا. أخذني تأثير الفضاء الشاسع، والصمت التام بعيداً (كان هذا يوم اثنين الفصح، والكنيسة مغلقة).

في محل مصوّر في شارع الكاديه، للمبنى سلّم رائع، واسع، فسيح، وبه حديد مشغول يناسب بهاؤه القصور. الكثير من المنازل الجميلة بالدرجة ذاتها تقع في هذا الحي، الذي أحبه لأنه حي، ولأنّ منازلهم جميلة، ليست بزخارفها، التي لم يُحظَ أكثرها بها، ولكن لجمال تناسبها، ارتفاع النوافذ والفضاء بين النوافذ. لقد فقدنا الإحساس بهذه الأشياء.

اجتزت نهر السين عبر جسر سولفيرينو للمشاة. مئات من الأسماك تطفو على المياه السوداء، البطون البيضاء ناحية السماء، مسممة بالقذارة التي تلوث نهرنا العذب.

حدائق التويليري التي شوهتها الأحصنة الخشبية، وقطارات الأطفال، والكازينو البافاري الضخم الذي تغني فيه مجموعة من الريفيين في بناطيل جلدية أمام أربعة عملاء، وفي مكان آخر، تصم الأذان ألحان موزارت المنبعثة من أجهزة المذياع...

أواصل السير حتى دار الأوبرا، حيث نويت أن أقوم بزيارة خاطفة لمقهى السلام. وهو مغلق على أية حال بسبب التبديل. هزني ما يعنيه ذلك... وفي جادة الطريق يجتمع الناس كما في الأعياد، يتضح من الساعات على أيديهم، أنّهم يتسكعون هناك، مصطفىين أمام دور السينما محبطين، بنيسين. أكره الجادة حيث أشعر بحضور ملل يكاد يكون خارقاً للطبيعة.

وماذا أقول عن الأحشاء التي يعرضها قصر بوبورغ برضى غبي كطفل دارج يكشف عن بطنه؟ أنت تحظى بمنظر رائع لباريس من الطابق الثالث، ولكن عليك أولاً أن تشق طريقك بين تلك القنوات العملاقة ذات اللون الأزرق السماوي، وكل ما يتبقى بعد من شبكة القنوات التي زينت الجزء الخارجي.

تسكع على طول شارع شرش-ميدي، حيث ما يزال بوسعك مشاهدة صفوف المنازل ذات النوافذ الفارحة، والمصاريح المعدنية مثل صفحات من الكتابة اليدوية. هذه هي

باريس اليوم تحت التهديد، مثلها مثل مدينة الأشجار... أمرٌ بذلك الطريق لأنظر إلى بعض الأثاثات. أعجبت بالمنازل القديمة خاصة التي تحمل الرقمين 87، و89. كان الهواء معتدلاً، والضوء قد غلفه الضباب الخفيفي للتو، ثم بدأ المطر يهطل بلطف. وفي الأعلى على متن عربة اللوري، طُوف عامل وسيم عاري الذراعين بلمحة ازدياء على المارة....

*

في متحف اللوفر. كلود (نحن نسميه "اللوريني") بسمواته الخوخية اللون، ونوره البهيج. لم يوضح أي من الفنانين جميعهم على نحو مذهل ما يمكن أن تكون عليه الأرض الضائعة، أو الأرض الأخرى التي ستطارد البشرية للأبد. من خلال النوافذ الكبيرة التي تشرف على النهر أخذت أنظر إلى باريس في المطر، وهو منظر لا أمله أبداً. ثم بدأت الشمس تشرق من خلال قطرات المطر واستمدت المدينة شيئاً من الضبابية التي اتسمت بها المسافات في واحدة من اللوحات المعلقة خلفي.

نزهات رائعة طويلة مشياً في باريس. في كلوني الذي يعتبر متحفاً نموذجياً اليوم. ذهبت العباءات الجميلة من المخمل الأسود المرصع بالأسنة الفضة والذهب، التي كان يرتديها فرسان الروح القدس. وغاب كذلك الشيطان الذي كان يمد لسانه ويرعب الراعبين - غير الملتزمات - بصلصلة السلاسل. وحيثما وضعوه، لا بد أن يضحك على عبثه الواضح. المتحف خال، والمرشد يراقبنا من بعيد من غرفة إلى أخرى، يعطي انطباع سجين في انتظار موعد الزيارة.

حدائق لوكسمبورغ في البرد، الأشجار موشحة بالبياض والبراعم الصفراء تحت السماء الرمادية الشاحبة. خطوط أسطح المنازل المتوازية الطويلة، والحدود السوداء السميكة التي صنعتها صفوف الأشجار، والكل كأنه جزء من تصميم محفور في الذاكرة لأبد الأباد.

أمطار كثيفة تكاد لا تتوقف تهطل على باريس. التويليري مثل بحيرة. يسير الناس في الماء. يتحول لون نهر السين، إلى أخضر مهيب، ويغطي السد السفلي على الضفة اليمنى. كان ذاك النهر ليتدفق طوال حياتي كقوة غريزية تنبئ بمصير الإنسان. حاولت في كتاب "النهر الغريب" أن أشرح كل ذلك بالإشارات، وإلا فأنتى للمرء أن يعبر عنه؟

في كنيسة السالبيتيرير. بدت الكنيسة غير المكتمل بناؤها خالية، ولكن أبعادها هائلة. مثالية في خطوطها، وتناسب حجمها، ولكنها شيدت آنذاك على يد ليبرال بروانت ولوفو¹¹، وحسبك من القول ذاك.

¹¹ Louis Le Vau و Liberal Bruant من أبرز مهندسي العمارة الباروكية.

تمثال ضخّم للمسيح نائم على صليبيه، يكاد قلبك يطفر من روعة تجسيده. من أي أعماق الصمت يحتج ذاك الصليب على كفرنا الحديث...

وعلى أحد أبواب غرفتي فتحت الشمس طاقة من اللهب. إنّها إحدى نوافذ برج مونتبارناس. يسعني أن أرى الأصل من غرفتي وقد أضفت عليه الشمس الغاربة حمرة الياقوت. أقف متفحصاً للحظة، ثم ألتفت، وهاهي تلك مرة أخرى، على باب آخر أبعد قليلاً لوناً قرمزيّاً متوهجاً واضحاً لدرجة يمكنني معها إحصاء الألواح الأربعة التي يغطيها. لم أر شيئاً في جمال ظاهرة الانكسار هذا عدا في الجبال.

يقول نهر السين: "أنا الطريق الذي يسير خلال باريس، كم حملت صوراً منذ طفولتك، وكم عكست على صفحتي من سحب. وأنا كالناس أتغير: لي لحظات سعادتي في الفجر من شهر يونيو، وأوقات تعاسة في بعض أمسيات شهر ديسمبر. ولكن فوق كل شيء أنا باحث- تسميه أنت حالة فيضان. لدينا قواسم مشتركة، أنتم عابرون أبديون، وأنا، الماء الشارد، الذي لا يتقهقر أبداً: زمنكم مداي وفضائي."

"الأضواء التي عكستها صفحتي! ذاكرتي مشكال بديع، ترون فيه كل ما انقضى ليشكّل تاريخ قرنكم: ساحة الكوكنكورد في فبراير 1934، والنساء حاملات الصواني يبعن محامل الكرات المعدنية لتُلقى تحت حوافر سلاح الفرسان؛ ممرات العشاق، أو القتلة، كما في كتبكم، ليمحو أحد البابوات في ميدان أمام كنيسة نوتردام ذكرى من لم يذهب إلى هناك طواعية. وجميع الألعاب النارية المتفجرة التي عكستها سماء ليلتي الذائبة قبل أن تبتلع خيوطها المطفأة، وكل مواكب عيد مايو- تلك التي أقيمت عام 68، على سبيل المثال- التي تؤمن بما عقدت عليه ثورات القرن السابق آمالها فقط، ولكن بدأ كل شيء مرة أخرى، كل شيء يعود ليدور في حلقة لا نهائية وسط سباق المتحدين اللانهائي هذا، وأولى السيارات الآلية، المرتفعة المربعة مثل الصناديق السوداء، تندفع على طول "شارع الملكة"، ومتاع رئيس الأساقفة الذي غمرته مياهي، ونيران معسكر القوزاق والبروسيين، والسيد غيوتن على مقصلته، بالطبع، والزكائب- على قيد الحياة- التي كنت تُلقى من نوافذ برج نيسل؛ القطع النقدية المعدنية التي كانت تُرمى من فوق الجسر المتحرك إلى الأسفل لإبعاد الحسد، وشجار الطلاب، وأعمال الشغب، والحصار، والمدينة البيضاء التي كانت تعرف باسم لوتيتيا عندما عسكر أتتلا [الهوني] منتشراً في كل ركن من الغابات، أترى، يجري الوقت سريعاً في صعوده بقدر سرعته في الهبوط."

"كل ما رأيته في مدينتك، منذ أن كنت صبياً حقيقي، رغم أنّ الشباب لن يتعرفوا عليه. سرعان ما سيأتي دورهم ليصفوا مدينتهم التي سيجدها أطفالهم-بدورهم- لا تتفق وذكرياتهم، وأنا أضمن لك أنّه في غضون مائة عام من الزمان، سيبتهج الناس لقراءة أنّ الوحوش رباعية العجلات ما زالت موجودة في باريس القرن العشرين، وغرف الدُّرُج في المنازل، والأبراج، والمتاحف، مثل متاجر الخردوات، حيث يجمع الناس الصور الملونة، والأغراض من كل نوع، مالم تغدو باريس نقطة على الخارطة، كما

تخليها جول فيرن، حيث أسماك القرش والسلاحف العملاقة تسبح وسط حجارة البحر الخضراء، وأنا خط أكثر قتامة قليلاً، أنتنى خلال المجرى الضيق صوب أتلانتيس جديدة!

" ليكن ما يكن، سأظل في مكاني الخفي، تذكر، سأندفق عبر الكثير من البواريس، باريس مالدورور، وباريس البؤس، وباريس التي تخصك النهر الغريب..لأن كل شخوص روايتك غرقوا في جوفي، ومع ذلك، ما زال بوسعي سماع الصرخات الحقيقية التي احتوتها أمواجي. أحتفظ بالبرهان كله، الذي أخفي في جوفي منذ العصور الوسطى، وأحوز أسرار الانتحارات، وإن أردت، مثل الآخرين، أنت تعرف رأيي في باريس، فنصيحتي هي أن تنظر إلى قلبك، حين ابتسامة سيدة نهر السين الغامضة..."

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

14

باريس المسحورة

--

لقد طاردتني باريس بشدة طوال حياتي حتى إنّ العديد من شخصيات رواياتي ورثت عني ذاك الافتتان، وحبّي للنزهات المنفردة المثيرة في شوارع العاصمة. حتى اليوم لا أحتاج سوى أن أتبع واحداً أو آخر منها لأعيد- من خلالهم، وكأنها زادت بسبب استغراقهم في الخيال- اكتشاف عذاب أو سحر مكان معين صدف أن عدت إليه.

لم أجد نفسي في ممر القاهرة مثلاً، حيث مغامرة فابيان المنتظرة، حتى في ظهيرة يوم مشمس إلا وكان الوقت والطقس خلاف ذلك- بقدر قلقي-: ليلاً وممطراً. ثمة شيء ثابت في ذاكرتي، وعلى الرغم مني أسمع خطوات رتيبة تأتي من الناحية الأخرى للمر، لتزيد من وتيرة قلق الشخص المنتظر. هل أستدر عائداً؟ " إن كنت مكانك، جوليان، " يغمغم صوت داخلي، " لن أفعل، لأنّ هذا كله، كما تعرف جيداً، أحلاماً، وتهيؤات. "

ولكن ماذا لو، كيما أرى، أغلق عينيّ للحظة، ماذا لو باريس، التي تخيلتها، أصبحت هي الحقيقية، ماذا لو ممر القاهرة كان مهجوراً، وكان مظلماً، ومع المطر الذي ينهمر على الزجاج المعتم فوق رأسي؟ تلمع نوافذ المتجر بالشر... لن أسمع الخطوات الهادئة تقترب، والصوت الذي منح بطلي القوة ليهاجر من جسد إلى جسد لينطق بعبارة افتح يا سمسم الخبيثة: " إن كنت مكانك... "

Paris
By: Julian Green
باريس

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

15

نداءات ضائعة

--

من بين جميع صرخات الشوارع التي لم تعد مسموعة الآن، من يتذكر: "عشبة أذن
الفأر للطيور الصغار؟" أي روح مُلهمة صاغت تلك النغمة، ذات الدوزنات الشجية
المرهفة؟ لقد كانت رثاءً رقيقاً حتى بدا لي أنه لا يريد أن يُسمع، تنهيدة توق خفي.
وأنت سمعته في شوارع معينة من باريس، تشق العبارة الصغيرة البسيطة طريقها عبر

ضوضاء السوق العالية، ولا تمتزج مع هتافات الباعة الجائلين، ولا هدير المرور، ولكنها تدور حول كل تلك الضجة مثلما يسير غريب حول الزحام.

طالما أُحيطت والمرأة التي كانت تسكب تلك الأغنية الغامضة طوال الوقت بعزلة عريضة، حتى عندما يتدافع معها الناس. وعلى وجهها لامبالاة الخارقين المتزاحمين. حملت في يدها حزمة ثقيلة من الأذان الذهبية، تعرضها بإيماءة خاوية كالتي قد ترسلها سيرس منفية لعرض رمز لدين منسي، دون أمل في أن تُفهم. وعلى ذراعها سلة واسعة عميقة تحوي منتجات لا نفع منها، كيف لا ولا جدوى من إطعام حيوانات لا تقوى على شيء سوى الغناء؟ ظل أحد طرفي وشاحها ينزلق من على كتفها، وبين الفينة والأخرى كانت تشده حول صدرها، لصوتها البعيد عذوبة أصوات نساء مجنونات، أو أولئك المسرنمات اللواتي يتحدثن عن شيء ليلي، مطمئن. إذن لا أحد يقترب منها، سوى عدد قليل من النساء المسنات في تنانير لم تعد تُرتدى، اللواتي كن يأخذن من حقائبهن قطعة نقدية بإيماءة حذرة متأثرة. يا للطف الذي تقدم لهن به الأعشاب، فيطبقن عليها أصابع أيديهن النحيلة. الأمر أشبه بما لو صادفت طقساً ما، رؤية المرأة ذات الوشاح المنزلق عن أحد كفيها، وهي تضع حزمة صغيرة من عشبة أذن الفأر في يد كف كثيرة العروق، وقطعة نقدية قدمت في المقابل اكتسى فجأة مسحة من عراقة العصور القديمة، وتصطبغ بمسحة استرضاء.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

16

منظر باريس

نحن نعلم بالطبع أنّ باريس جميلة، ولكن الفنانين يعيدون علينا ذلك بكامل سلطة عبقريتهم، ونرى نحن أنفسنا في ذهول أمام مدينة، وضعها أمام أعيننا مانيه، وديغاس، ومونيه وكثيرين غيرهم أمامنا، مختلفة جداً مما نراه، ولكنها رغم ذلك حقيقية جداً.

ماذا بوسع المرء أن يقول، في مواجهة حدائق التويليري تحت سماء أبريل بيسارو، أو سد نهر السين في شتاء تحت سماء غوجان المبلدة بالثلوج، أو غسق ليبورغ الوردي؟ الشفاه صامتة، ولا لغير العيون قدرة على الحديث.

ثمة شيء في مشهد باريس لا يمكن تحديده تماماً، مثل التعبير على وجه شخص ما. حاول كثير من الفنانين التقاط ذاك التعبير، ولكن لم ينجح إلا القليل منهم، مهما أمعنوا الملاحظة. مميزة هي موهبة التجانس هذه عند تطبيقها على مدينة كباريس. ثمة شيء مفقود في لوحة قد يُحكم عليها بضعف التجانس، ربما قد تكون ذلك، بينما جميع الأشجار في أماكنها الصحيحة، والمنازل مصوّرة بدقة فائقة، وذلك الشيء هو باريس نفسها، الحضور الخفي لباريس، الروح التي تعلّم النور، وظل أوراق الشجر على الحجر. ثم إن نظرت إلى مشهد بيسارو للشوارع الرئيسية، أو منظر مونتمارتر الذي رسمه فان جوغ من رسمه، ستشعر بنوع من الصدمة داخلك، الصدمة التي لا تسببها سوى الحقيقة عندما ترسم الضوء والضباب والسماء في متر أو اثنين من القماش، وتجعلها تعيش هناك للأبد.

، الصدمة التي تتحكم بها الحقيقة فقط عندما تجذب الضوء والضباب والسماء إلى متر مربع أو مترين مربعين من القماش وتجعلهم يعيشون هناك إلى الأبد.

ربما يقال أن باريس كانت مدينة الانطباعيين. والآن أول شيء يدهشك بشأن أعمال هؤلاء الفنانين هو بساطتها الهائلة. لديها بساطة حقل شوفان، وخشخاش تحت سماء فصل الخريف، بساطة طريق أشجار الليمون في بلدة ريفية صغيرة، وأيضاً هي حرة كما الهواء، وقد هربت من سجن الصيغ، بينما يمر الهواء بين قضبان السجن. نصب حامله في الخارج. وانتشر الرسامون بفرشهم ومقاعدهم الخفيفة على ضفاف نهر السين، أو شوارع باريس فأعطونا مدينة متألفة في هدوئها، ومدينة مضيئة لامعة حتى تحت السماء العاصفة، مدينة أعطت فيها السماء وهماً دقيقاً للانضمام لجميع العاب المدينة. نحن ما زلنا بعيدين عن مدينة الحجر والرخام التي رآها بودلي، ولكن الشعراء يحملون في قلوبهم الرؤيا المأساوية لرغباتهم. إنهم لم يروا ذلك المشهد القاتم، وضع - رسامينا، الظل بالألوان اللامعة ونظروا بعيني الأطفال للحدائق، وزخات المطر، والشوارع المزدحمة. وتحت السحب البيضاء الكبيرة التي تطوف بسماواتها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يعيدون إلينا باريس السعيدة. باريس، مدينة النور.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

17

اسمعي أيها الحطّاب

--

أرى الأشجار تتضاءل عامًا بعد عام. ربما يقول الناس إنهم يعيدون غرسها: لن تجد العدد نفسه أبدًا. ودائمًا ما تجد مجموعة أقل منها ترفع أذرعها نحو الشمس من جديد، أو تؤرج في الريح خصلاتها.

باريس هي المدينة الوحيدة التي يُعامل فيها إخوتنا الأشجار بهذه الطريقة؛ فلا برلين ولا لندن، إن خصصنا بالذكر المدن المتحضرة، تُظهر مثل هذا التجاهل للطبيعة. كل عام، وبشتى الذرائع، تشهد شوارعنا مناظر أجدر بفظائع الحرب، وترفع الضحايا المُمثل بها جذوعها على سطوح العربات الآلية اللامبالية التي تتحمل المسؤولية الكبرى عن هذه الإبادة الخرقاء. إن كانت الأشجار، كما يقول أرسطوطاليس، أناسًا في حلم يقظة، فماذا كانت لتظن بقاتليها؟ ليس لدي رغبة في المخاطرة بمنحها صوتًا، إذ أن على جانبها صمت العشاق، وألعاب الأطفال، وإلهام العزلة، والأحرار الذين لا يعرفون قيدًا، والذين أعني بهم الطيور. هل ثمة تناسب في كل هذا، بين من يسمون أنفسهم خبراء القطع والتقليم وجميع الكلمات الأخرى التي يستخدمونها لإخفاء جرائمهم؟ الأسفلت والغبار هو ما يريده هؤلاء، بلا فكرة عما تبدو عليه باريس وحدائقها من السماء. هل يفترضون أن المتسكعين سيختفون بنهاية العصر، ولن تتجو الأشجار؟ منذ حقبة ما قبل التاريخ، نمت الأشجار - إلى جانبها، إن جاز القول - ثم عندما وقف الإنسان على قائمته الخلفيتين، نما النبات الذي كان في عهد وحوش ما قبل الطوفان العظيم ما زال زاحفًا وطال كأنه أراد أن يحميه، وهو الذي وُلد ليكون مَلِك الطبيعة. على أي شيء هم ملوك، أولئك الناس الذين يقطعون ويقلّمون، والذين لا يرون في الأشجار سوى محض خشب، والذين استحقوا لعنات رونسارد لحطابي غابة جاستن إلى الأبد.

كم من الحرائق، والتقبيد، والموت والمصائب، تستحق؟ أيها الدنيء....

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

18

مدينة فوق المدينة

--

في كل مدينة أوروبية، ثمة مدينة للناس وأخرى للتماثيل. لا أعني تلك التي تراها في الميادين والحدائق، وعلى مستوى العين في واجهات المباني، التي تبدو كأنها تقف حرساً على عالم الحجر والبرونز والرخام ذاك، فتحفظه، كما كان، تراقب عن كثب حركاتنا، - التي تبعث على الارتباك كما تفعل الحشرات الغاضبة بإنسان عادي.

في الأعلى، على السقوف وعلى جوانب أو واجهات أمامية للكنائس والقصور أو المباني العامة التي ورثناها بحلول القرن التاسع عشر، ثمة عالم مواز، يقاوم تقلبات مزاج الوقت، وينظر للشمس كما ينبغي أن ينظر الموتى إلى المجد. ولا يرى الكثير من هذه الرموز من الأسفل إلا جزئياً (نسبة لأننا في الأعلى حيث وضعت، نجد أنفسنا نعيش بالأفكار أكثر من الأشخاص المعروفين). أحدها لأبولو الذي يحمل قيثارته دوماً سامياً على عالم الشوارع الخالية من الحياة والتي تلتقي عند دار الأوبرا، كما لو أنه أراد أن يفرغه من تدفق المركبات البغيض، أو لغانيميد الذي اختطفه أحد نسور شركة التأمين-إلا إذا كانت العنقاء؟ هل كانت هي؟- فوق خط جادة هوسمان، الذي كساه دخان العوادم زرقة، كم من الفضائل الخفية التي لا تكتشفها إلا من نوافذ نائنة في الطابق السابع لمبنى بلا مصعد، أو بشيء يسير من إمعان النظر في علية متحف اللوفر أو شرفة متجر كبير، إن حالفك الحظ فأحضرت منظارك المقرب. ماذا عساهم أن يروا، مواسم الربيع الأبدية تلك؟ هذا "الاعتدال"، وهذه "العدالة"، ما الذي يظنه هؤلاء العباقرة المجهولون، وهذه المثل الدينية كل هذه الفوضى المحضة التي اعتقدنا أننا

ألقينا بها في زوايا مخبأة يصعب على الناس في الأسفل الوصول إليها؟ وماذا يفعلون ساهرين في المساء، تلك التماثيل، عندما تبسط الظلمة الأرض، وفي ليالي نوفمبر الضبابية، وحينما يغيب عن الأمسيات القمر، أو العكس، عندما يمسح قمر مايو أسقف المدينة كبحر قاتم موجه؟

أفترض أنَّ المسافة غير موجودة في عرفهم، بالنسبة للأساقفة المتوجين على واجهة كنيسة سان روش، ومسوخ الكمير وملعوني كنيسة نوتردام، والرؤوس ذات العيون المحدقة فوق محطة أورساي المهجورة، التي سلبت الآن فندقها وشباك تذاكرها، كصدفة تخلق عنها سلطعون ناسك، والملاك الضخم على طراز الفن الحديث بشارع ريومور.

هل يفكرون أيضاً في موتاهم، عندما دفعت الموضة الرجال لمناهضة الأيقونات، أو عندما في وقت الحرب يتحول تشاب وتيلغرافه، ولافونتين، ودوليه وغامبيتا، وأعداد إذ حصر لها، من تماثيل كيوبيد البرونزية إلى أسلحة؟¹² من الواضح أنَّ الإنسان يدمر ما صنعت يده، متعة مساوية. كما لو أنَّه كان خائفاً في نهاية الأمر من العالم الذي خرج من رأسه وبين يديه، فقد خاف بجماليون من أن يهرب منه غالاتيا ويتحول إلى فينوس إيل، عكس ما فعله الله في تمثال آدم الحي، إذ منحه جسداً ثانياً.

Paris
By: Julian Green

باريس
تأليف: جوليان غرين
ترجمة: أميمة الزبير

19

زخر المستقبل

¹² في إشارة لما قامت به فرنسا من إعادة تدوير التماثيل المعدنية واستخدام موادها في صنع الأسلحة.

كيف ستكون باريس غداً؟ كانت الفكرة في رأسي بينما كنت أتنزه بالقرب من نهر السين وسط الضباب. تأملت حسن البراعم التي غطت الأشجار بغلالة رقيقة. حازت باريس جمالاً يقلقني أحياناً لأنني أحسه هشاً مُهدداً بالخطر، من قبل مخططي مدينتنا عامة. أي معماري شاب سيمنحنا أخيراً مدينة المستقبل، مدينة جميلة قادرة على جذب الأجيال القادمة كما افتتنتنا نحن بباريس التي تشكلت شيئاً فشيئاً على مر القرون؟ إنه لكثير أن نحلم بشخص ذي رؤية، ليكون شاعر المكان، لا أحد من هؤلاء المخططين لتشويه الحياة، لتفسير مقولة بودلير، أولئك الذين يضربون في المساحات الخالية التي أقاموا بها مبانٍ سكنية حديثة على شكل مكعبات سمجة، تضج بأصوات وغضب منظومة التلفاز الخاصة بالجيران، وشبكات الصرف الصحي...

من المحتم حدوث قدر بعينه من التدمير، لا نستطيع أن نستمر بالشكوى للأبد على ما ذهب. ولكن لابد أننا تعلمنا من الزمن ألا نضل نحمل- في غياب- ما لم يُصنع ليدوم، شيدت جميع هذه المباني قبل مائة عام، والآن يتم ترفيعها في أجزاء من حي الماريه، وحول ضاحية سان انطوان. نحن على عتبة القرن الحادي والعشرين، نعيش مع أعرق الأفكار، خاصة التي تتعلق بطريقة بناء المدن. ليست مسألة تخلص من الماضي، بل توظيفه كذاكرة، والمستودع يستقي منه المستقبل، زاحراً بكل الجمال الذي مُنحنا إياه عبر الأجيال منذ أول حجر يقطعه إنسان.

الفضاء والطبيعة- حيث تعود الأمور دائماً. لا يمكن أن تزدهي الهندسة المعمارية الحديثة بمبادئ ضيقة الأفق، مثل إعادة بناء باريس قطعة قطعة. سوق ليال هنا، مونتيبارناس أو الحي الخامس عشر هناك، وبدون رؤية شاملة، ولا تفكير في الغد. دائماً ما كان أصحاب الرؤية موجودين، و"حلم المهندس المعماري" لتوماس كول ينسجم وأحلام سوين، ولوس، وكلينزه بلندن، أو فيينا أو ميونخ المثالية، ذهب جيفرسون إلى أبعد من ذلك: بنى حلمه- جامعة فيرجينيا، حيث أنهيت دراستي. لم يتمتع المبدعون الفرنسيون العظماء على أية حال، مثل لوديو، وبوليه، ولو كوربيزييه بالحظ الكافي لرؤية أحلامهم تتحقق، وما تمكنوا من فعله لبناء مدينتنا، لم يألُ أباًونا جهداً في إعادته سيرته الأولى. برامج بوليه، والباسيليكا، والضريح، ومشروعات المسرح، وخطط لوديو لمنازل المدينة، والأماكن العامة، وأحياء الحرفيين، بالكاد تجاوزت مرحلة الرسومات التي نعجب بها في المتحف. ويظهر قرننا الريبة ذاتها. كم سارسيل لكل برازيليا!

منذ وقت ولادتي في الحي السابع عشر، بالقرب من مدخل تارن، بعد الحروب، وسنوات المهجر، حتى بعد كل من الرحلات التي كانت تأخذني إلى حيث أرغب، كنت أعود إلى مدينتي الأصلية لأشعر بالدهشة المحمومة ذاتها كل مرة. بوسعي أن أراها وهي تتغير. ربما ظننت أن هؤلاء المسؤولين كانوا يتأملون المستقبل بمناظيرهم التي

استدارت نحو الاتجاه الخاطيء. ماذا يعني لهم جمال السماوات، أو الأشجار، أو كل الأشياء التي تدسّ السعادة في أعين المارة...

ربما بعد ألف سنة من الآن، سيقف رجلٌ كما أقف، خلف زجاج النافذة، وينظر كما أنظر إلى منظر هذه المنازل خلف الأشجار، وهذه السماء التي تنثر أمطار الربيع. أحاول تخيل أنني اجتزت تلك المسافة الزمنية العظيمة، وأنني ذاك الرجل. فيم يفكر هو؟ هل هو سعيد؟ هل يتساءل أحياناً عما يفعل على هذه الأرض، ولم في فترة ما دون أخرى؟ بم يؤمن؟ ماذا بوسعُه أن يرى؟ هذا الفضول ذاته الذي يثيره فيّ، أثاره هو في الآخرين قبل أن يمضوا بعيداً في زمن انبعاث لوتيتيا من الطين أول مرة. ربما في هذه البقعة تماماً حيث أقف، بربري يُلهم عن الرجال الذين كانوا سيأتون. وأنا هنا، أحلم بباريس المستقبل تلك، شيدت سامقة في الفضاء الذي أضحي الآن ملكنا، حيث تتبعثر الخرسانة، والزجاج والفولاذ، وربما مواد أخرى ليست معروفة الآن، هي التي ستكون جمالاً غير ذي حدود.

الحواشي

--

رقم الصفحة	البيان
11	الماريز، الآن، الدائرتان الثالثة والرابعة، أحد أقدم أجزاء باريس، وبه الكثير من المباني العتيقة الجميلة. يشمل الحي الخامس السوربون، الجامعة التي يعود تأسيسها إلى عام 1253.
19	جان-بول مارا (1743-93) Jean-Paul Marat أحد أشهر صحفيي الثورة الفرنسية. اغتيل (في حمامه) على يد شارلوت كورداي Charlotte Corday ، حفيدة الدرامي بيير كورني. Pierre Corneille .
	ثيوفيل غوتيه (1811-72) Theophile Gautier، شاعر، روائي وصحافي فرنسي، أهداه بودليز كتابه أزهار الشر.
23	فرانسوا مونسار، أو مانسار (1598-1666)، رائد العمارة الفرنسية الكلاسيكية البارز.
25	فيليب أوغست، Philippe Auguste، أحد قدماء الملوك الفرنسيين العظام. كان بناء سور حصين حول باريس من إنجازات حكمه الكثيرة (1180-1223).
29	ماري باكشيرستيف (1860-84) Marie Bashkirsteff، كاتبة مذكرات حميمة غطت ما يقارب نصف عمرها القصير. الرسام إدوارد مانيه Edouard Manet (1832-83)، هو الآخر مدفون في مقبرة باسي.
	بنجامين فرانكلين (1706-90) Benjamin franklin، كُرم في باريس كأول سفير أمريكي في فرنسا (1776-85) .
49	فرسان الروح القدس، كانوا أعضاء في كتيبة أحياء البابا إلكسندر السادس في نهاية القرن الخامس عشر لغرض حراسة قبر المسيح.
57	إيزيدور دوكاس (1846-70) Isidore Ducasse، المسمّى نفسه "كونت لوتريمونت، كان كاتب أغنيات مالدورور المهلوسة، إحدى أعظم القصائد في الأدب الفرنسي ككل.
63	جسر جميع القديسين، هو امتداد افتراضي لشارع جميع القديسين سان بير، وهو ما يدعوه الباريسيون جسر الكاروسيل.
	د. صمويل جونسون (1709-84) Samuel Johnson: "لا يا سيدي، إن سئم الرجل لندن، فقد سئم الحياة، لأنّ في لندن كل ما قد تعطيه الحياة." متعبٌ من لندن، فهو متعب من الحياة" من كتاب بوزويل Boswell "حياة جونسون" 20 سبتمبر 1777.
65	في بادرة مشينة هدم آل بربريني The Barberini السيرك الكبير في روما ليقيموا قصرهم مكانه.
67	تشارلز السابع، عاهل جان دارك، فترة حكمه 1422-61.

- 69 توماس الكيمبسي (1380-1471) Thomas a Kempis يشيع الاعتقاد بأنه مؤلف كتاب الاهتداء بالمسيح.
- 71 قصر التروكاديرو، بني على يد دافيد، وبورديه لمعرض باريس لعام 1878، هُدم واستبدل بقصر تشايو الحالي (المكون من "جناحين" بدون جسم، انظر حاشية صفحة 29 أعلاه) لمعرض باريس عام 1937.
- 73 قصر التويليري احترق نتيجة لنزاع مدني بين الكومونيين والفرسايين أثناء حصار باريس عام 1871.
- 81 الفنان التشكيلي إيوجين ديلاكروا (1798-1863 Eugene Delacroix) وهنري ريسنر (1734-1806 Jean-Henri) Riesner حيث عاش الفنان وصانع الدواليب وعملا معا في ساحة فيرستمبرغ، ول هويت Paul Huet (1803-69) وفكتور ماري هوغو (1802-85) Victor-Marie Hugo، وقد عرضت لوحاتهما المائية ورسوماتهما ضمن مجموعة ديلاكروا.
- منزل بيرون، هو مقر متحف رودن، جياكومو مانزو Giacomo Manzu (1908-91)، نحات إيطالي.
- الرجل المشنوق من أعمال النحات الإيطالي بيركل فاتزيني Pericle Fazzini (1913-87).
- 83 جان إيريك غرين ابن المؤلف Jean-Eric Green
- 85 المهندس المعماري فرانسوا تشالجرين (1739-1811) Francois Chalgrin هو الذي صمم قوس النصر لنابوليون.
- أعيدت الميمياوات من مصر (من قبل نابليون) حيث وضعت أولاً في متحف الآثار القديمة، ثم دفنت تحت عمود ساحة الباستيل، ووريت الثرى أخيراً في مقبرة الأب لاشيز.
- تقع غرفة صغيرة دائرية تحت العمود في الباستيل، ضمت لوقت ما أجساد من قضاة أثناء ثورة شهر يونيو عام 1848.
- البحيرة تحت الأرض مذكورة في رواية غاستون ليرو، شبح الأوبرا، وهي موجودة الآن كمعلم أثري فقط، تحت دار الأوبرا، وحول معظمها إلى موقع آخر تحت الأرض بجوار شارع بروفنس، حيث تشكّل جزءاً من شبكة الصرف الصحي بالمدينة.
- نموذج رودين لبير دي ويسانت Pierre de Wissant، أحد مواطني كاليه الأحرار، ممثل كوميدي فرنسي شهير يدعى كوكيلا كاديه Coquelin Cadet

(تميزاً له عن أخيه الأكبر الأشهر كوكيلا أيوني، منشيء دور كريانو دي بيرغيراك).

قلعة الضباب بتسميتها الرومانسية هي بناء باهظ التكلفة من القرن الثامن عشر، في مونتمارتر، وقد كان لفترة من الوقت سكناً للكاتب جيرار دي نيرفال (1808-55) Gerard de Nerval وليس للفنان رينوار —على خلاف الاعتقاد الشائع- الذي كان بالكاد يقيم في المباني الخارجية.

87 الشاعر أندريه شينير (1762-94) The poet Andre Chenier، والكاتب إيزيدور دوкас (1846-70) الذي اختار اسم لوتريمونت (انظر الحاشية رقم 57)، والدرامي جان بابتيست بوكيلين (1622- Jean-Baptiste Poquelin) (73)، الذي تسمى بمولير، وجميعهم عاشوا في هذا الجزء من باريس.

رونجيس، في الضواحي الجنوبية من باريس بالقرب من باب دو جنتيلي، هي الموقع الحالي لسوق الخضر والفاكهة بالمدينة، والتي انتقل إليها من ليال في بدايات 1970.

91 كاهن كنيسة أيوستاش المؤلف الموسيقي الأب إميل مارتن. النهر القريب، ترجمة لرواية جوليان غرين، 1931، Novel Epaves على يد فيفيان هولاند Vivian Holland، نشرت عام 1932 من هينمان (UK) و هاربر (USA).

93 برج مونتبارناس، مجمع من 58 طابقاً، أنشيء عام 1974، ويهيمن على الأفق الجنوبي لمدينة باريس.

94-93 ما شهده نهر السين في ساحة الكونكورد في 1934، كان شغباً شعبياً في مناهضة مجلس النواب والحكومة. البابا الأول المشار إليه هو جون بول الثاني، الذي زار باريس في 1980، والآخر هو بيوس السابع، أحضر إلى باريس سجيناً في 1810 عقب اجتياح نابليون المقاطعات البابوية.

95 أثاث رئيس الأساقفة رُمي في النهر أثناء حصار باريس في 1870-71، ونيران معسكرات القوزاق، والبروسيين شوهدت في 1814 و 1870 على التوالي. جوزيف إنياس غيوتن (1738-1814) أستاذ التشريح وعضو عموم الولايات المنعقد في 1789، كان المطور أكثر منه مخترعاً للجهاز الذي حمل اسمه فيما بعد (صُم من قبل أمانة كلية الجراحين، وصنعه ميكانيكي ألماني يدعى شميدت (Schmidt)).

برج نيسل، (يكتب بتهجنتين Nesles، أو Nesle)، كان مشيداً في موقع يحتله حالياً معهد فرنسا، وارتبط هذا البرج بجرائم الملكة مارغريت بورغندي

Marguerite de Bourgogne (1290-1315) وألهم الكسندر دوماس بير
لكتابة تمثيلته التاريخية بذات العنوان برج نيسل.

رواية جول فيرن المشار إليها هي المدينة العائمة.

97 سيدة نهر الصين هي امرأة انتشل جسدها من النهر في وقت ما حوالي منتصف
القرن التاسع عشر، على وجهها تعبير هدوء مثالي لدرجة أنَّ قالباً من الجبس
صُبَّ على وجهها. ويمكنك حتى الآن شراء نسخ من قناع موتها في متاجر الهدايا.
فابيان هو بطل رواية جون غرين لعام 1947، بعنوان Si J'etais vous التي
ترجمت إلى الإنجليزية على يد جون مكيوان: لو كنت مكانك، ونشرها إير
وسبوتيسود في 1949.

9-107 "اسمعي أيها الحطّاب" ترجمة لافتتاحية "كم من الحرائق.." وهي مقتبسة من
قصية مؤثرة لبيري دي رونسار ضد خطابي غابة غاستين (المراثيات 28)،
والمكتوبة احتجاجاً على تدمير غابة محبوبة "يكتب اسمها أحياناً "Gastine".
والاقتباس من ترجمة إنجليزية لأرثر بويار Arthur Boyars

113 فينوس إيل، تمثال برونزي في رواية لبروسبر ميريمي (Prosper Merimee)
La Venus d'Ille, 1837)، عاد إلى الحياة خطأ بسبب شاب أسقط خاتم
عروسته في أصبع التمثال. " وهو ما أدى في النهاية إلى أن يلقي الشاب ميتة
شنيعة."

115 "الزجاج السيء" قطعة من قصائد بودلير النثرية الصغيرة (1869)، حيث يؤيد
الراوي زجاجاً متجولاً في حي فقير، لأنه لا يبيع الزجاج الملون "لترى الحياة
من خلاله جميلة"

117 السارسيالات مفردها سارسيل هي بلدة جديدة في الضواحي الشمالية لباريس،
تجتمع فيها كل مشاكل الفقر، العنف، والجريمة والتوتر العرقي.

تفاصيل بيبلوغرافية

--

"كثيراً ما حلمت بالكتابة..." كتبت في 1945، ونشرت لأول مرة في الأعمال
الكاملة (لا بلياد)

"باسي" كتبت في 1943، ونشرت في (بور لا فيكتور)، نيويورك، 1943

سان جوليان الفقير، كتبت في أمريكا، عام 1943، ونشرت لأول مرة في الأعمال الكاملة.

الحي السادس عشر المتميز كتبت عام 1943، ونشرت في (بور لا فيكتور).

"المدينة السرية"، نشرت لأول مرة في الأعمال الكاملة.

القصر الملكي: كتب عام 1944، ونشر لأول مرة في الأعمال الكاملة.

كنيسة نوتردام، كتبت لأول مرة في 1946 ونشرت لأول مرة في الأعمال الكاملة.

دُرج ودرجات، نشرت لأول مرة عام 1946 في مجلة بليزيه دو فرانس.

كنيسة وادي النعمة: ظهر جزء من هذا النص في الأعمال الكاملة، وقد نشر الباقي هنا في كتاب باريس لأول مرة عام 1983.

"بشاعة المدرسة" نشرت لأول مرة في الأعمال الكاملة .

صومعة آل ببيت، نشرت لأول مرة في صحيفة لو فيغارو، 1946.

التروكاير يتحدث، مقتبص من الجورنال، ونشرت هنا في كتاب باريس لأول مرة عام 1983.

متاحف، وشوارع، ومواسم ووجوه: مقتطفات من الجورنال، كتبت في عدة مناسبات ونشر الكثير منها هنا في كتاب باريس لأول مرة عام 1983.

باريس المسحورة: نشرت لأول مرة هنا، في كتاب باريس عام 1983.

نداءات ضائعة: نشرت لأول مرة في الأعمال الكاملة.

منظر باريس، نشر لأول مرة هنا في كتاب باريس 1983.

اسمع أيها الحطّاب..: نشر لأول مرة هنا في كتاب باريس عام 1983.

مدينة فوق مدينة: نشرت لأول مرة هنا في كتاب باريس عام 1983.

زخر المستقبل: نشرت لأول مرة هنا في كتاب باريس عام 1983.

صفحة الغلاف الخلفي

"أغرب كتب الرحلات وأشدها إمتاعاً"

الأوبسيرفر

ولد جوليان غرين لأبوين أمريكيين في باريس وأمضى معظم حياته في العاصمة الفرنسية. باريس رسالة حب شاعرية استثنائية إلى المدينة، تأخذ القارئ في رحلة خيالية حول مراقبيها السرية، وفناعاتها، وأزقتها، ومخابئها. سواء اقتحام هدوء كنيسة مهجورة في يوم صيف قانظ، أو تذكر كنيسة نوتردام في عاصفة شتوية عام 1940، وصف أشجار الكستناء وأعاليتها مضاعة في الليل مثل الفوانيس اليابانية، أو افتقاد غياب نداءات الشارع، والمباني القديمة، كتابه زاهر بالصور العصرية على النسيان. وهو تأمل في التوهان والسخاء بالوقت، وما قد تعنيه معرفة مدينة ما.

"صادق، عفوي، وشائق"

الملحق الأدبي لصحيفة التايمز

